ذلك جزيناهم بما كفروا

□ ذلك جزيناهم بما كفروا □

سبحان الحكم العدل الحكيم ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون** ﴾ [الروم : ٩ - ١٠] .

قال ابن كثير :

كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن ابن عباس وقتادة وهو الظاهر(١) .

إنما أوتوا من قِبل أنفسهم كما قال : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

من زرع الشوك لا يحصد الورد ، ومن استنبت الحشيش لم يقطف الثمار ، ومن سلك طريق الغيّ لم يحلل بساحة الرشد ، في الدنيا الهلاك والبوار ، وفي الآخرة مصيرهم إلى النار .

إنّ السَّفاهةَ صِيغتْ من خلائقهمْ   لا بارك الله في القوم الملاعينِ

كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم أساءوا ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

قال تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٧] .

يقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه القيم أضواء البيان :

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١٢ - ٣١٣) .

أغرق الله فرعون وقوم نوح ، وأخذ ثمود بالصيحة ، وعادًا بريح ، وقوم لوط بقلب قُراهم ، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل ، فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها ، أم أنه للتنويع في العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله، والواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة ، وفيه تنكيل بمن وقع بهم ، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلًا[١] .

فهل كان نوع العذاب لكل قوم من جنس عملهم ؟

هذا الذي سنحاول توضيحه بعون الله تعالى في هذا الفصل .

○ قوم نوح ○

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[٢] .

قال الحافظ :

وقصة الصالحين كانت مبدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك[٣] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم عُبدت[٤] .

فأرسل إليهم نوحًا أول رسول للبشر ، وهو أحد أولي العزم من الرسل ، ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل ، في دأب طويل ، وفي صبر جميل ، وفي جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عامًا .

---

(١) أضواء البيان (٨/٤٤١ - ٤٤٢) .

(٢) رواه الحاكم عن ابن عباس موقوفًا ، وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي .

(٣) فتح الباري (٨ / ٥٣٧) .

(٤) فتح الباري (٨ / ٥٣٥) .

وقد كان نوح مفصحًا مع هذا عن نذارته ، مبينًا عن حُجته ، لا يتمتم ولا يجمجم ، لا يتلعثم في دعوته ، ولا يدع لبسًا ولا غموضًا في صفة ما يدعو إليه ، وهم لا يواجهونه إلا بإعراض واستكبار واستهزاء : ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ [العنكبوت : ١٤] وكان كلما انقرض جيل وصوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح ما عاش ، ودائمًا ما بقي .

بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء ، وبعد كل هذا التوجيه ، والتنوير ، والإنذار ، والإطماع ، والوعد بالمال والبنين والرخاء ، بعد هذا كله كان العصيان ، وأوحى الله إلى نبيه نوح ما قصه في كتابه : ﴿ **وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ [هود : ٣٦] . فدعا نوح على قومه : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون** ﴾ [الصافات : ٧٥] .

وأوحى الله إلى نبيه نوح: ﴿**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ [هود : ٣٦] حتى ما تحمله أرحامهم إن قُدِّر لهم الخروج إلى الدنيا ، لا يسوءنك فإن النصر قريب ، والنبأ عجب عجيب .

وهنا دعا على قومه : ﴿ **وقال نوحٌ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارًا** ﴾ [نوح : ٢٦ - ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ [هود : ٣٨ - ٣٩] .

قال العلامة الألوسي - رحمه الله :

استهزءوا به لعمله السفينة ؛ إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها ، فتعجبوا من ذلك ، وسخروا منه ، وإما لأنه - عليه السلام - كان

يصنعها في برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون ، ويقولون : يا نوح ، صرت نجّارًا بعد ما كنت نبيًّا .

قال : إن تسخروا منا لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص من العذاب ، فإنا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض . إنها منه - عليه السلام - لمّا كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح(١) .

وقال ابن جريج :

إن تسخروا منا في الدنيا ، فإنا نسخر منكم في الدنيا والآخرة ، في الدنيا عند الغرق ، وفي الآخرة عند الحَرَق .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا :

نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدًا لما يحل عليكم ، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل ، وبما سيكون من عاقبة أمرنا، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يذله ، ويجلب له العار والتبار في الدنيا ، ويحل عليه عذاب مقيم بعد ذلك في الآخرة(٢).

اليوم لكم فرح وغدًا ترح ، اليوم حبرة وغدًا عبرة ، اليوم لطف وغدًا أسف ، اليوم لقاء وغدًا بكاء ، يوم ينكشف المستور عن المحذور !

يقول الشيخ الشنقيطي :

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وأصبحوا لا يلدوا(٣) إلا فاجرا كفارا ، فلزم تطهير الأرض منهم ، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان(٤) .

وقال الشيخ سيد قطب :

قد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص ، الذي انتهى إليه القوم في زمانه ؛ ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ، وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير ﴿ **وقيل بعدًا للقوم الظالمين** ﴾ [هود : ٤٤] بُعدًا لهم من

---

(١) روح المعاني (١١ / ٥٠ - ٥١) .

(٢) تفسير المنار (١٢ / ٧٤) .

(٣) هكذا في الأضواء ، وصوابها يلدون .

(٤) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

الحياة فقد ذهبوا ، وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لُعنوا ، وبُعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقون ذكرًا ولا ذكرى[1] .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدًا للقوم الظالمين ﴾ [هود : ٤٤] .

قال ابن كثير :

الجودي : قال مجاهد : هو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل ، فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح[2] .

والجزاء من جنس العمل .

قال القرطبي :

لما تواضع الجودي وخضع عزّ ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلّ ، وهذه سنة الله في خلقه ، يرفع من يخشع ، ويضع من ترفّع ، ولقد أحسن القائل :

وإذا تذللتِ الرقابُ تخضُّعًا منّا إليك فعزها في ذلك[3]

يذكر الله مصرع هؤلاء الملاعين بآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، واستذلت مصافع العرب فسفعت بنواصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنها نطاق البيان ، وكانت من سمهري البلاغة مكان السنان ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسلات المؤمنة .

والعجيب أن هذه الآية كانت كطوفان نوح على أهل الفصاحة ومن أرادوا أن يعارضوا القرآن .

---

(١) الظلال (٦/٣٧١٧) ، (٤/١٨٧٩) .

(٢) ابن كثير (٤/٢٥٦) ، الطبري (١٥/٣٣٧) .

(٣) القرطبي (٥ / ٣٢٧٠) .

يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن ، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يومًا ؛ لتصفو أذهانهم ، فلما أخذوا فيما قصدوه ، وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض : هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين ، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا .

ويروى أيضًا أن ابن المقفع - وكان كما في القاموس فصيحًا بليغًا ، بل قيل : إنه أفصح أهل وقته - رام أن يعارض القرآن فنظم كلامًا ، وجعله مفصلا ، وسماه سورا ، فاجتاز يوما بصبي يقرؤها في مكتب ، فرجع ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبدا وما هو من كلام البشر[1] .

لطيفة :

لمّا عمّ أهل الأرض العمى عمّا خُلقوا له ، بُعث نوح بجلاء أبصار البصائر فمكث يداويهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكلهم عن المحجة تعامى ، فلاح للاحي عدم فلاحهم ، وناله اليأس من صلاحهم ، وبعث شكاية الأذى في مسطور : ﴿ **رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا**﴾ [نوح : ٢١] فأذن مؤذن الطرد : ﴿ **أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ [هود : ٣٦] ، فقام نوح في محراب : ﴿ **لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا** ﴾ [نوح : ٢٦ ، ٢٧] .

فات النور ﴿ **وفار التنور** ﴾ [هود : ٤٠] ، وقيل : يا نوح قد حان الحين : ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ [هود : ٤٠] ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ [القمر : ١١ - ١٢] .

أتى الماء في موج كالجبال ، يغسل ويطهر الأرض من جبال الخطايا ودنس الشرك ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) روح المعاني (١١ / ٦٣) .

○ قصـة عـاد ○

وقد كانوا عربًا يسكنون الأحقاف - وهي جبالِ الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر ، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد** ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وقد أعطاهم الله بسطة في الجسم .

قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منَّا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة** ﴾ [الأعراف : ٦٩] فجعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش .

قال تعالى : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ، ١٢٩] أرسل الله إليهم نبيه هودًا ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فلما أبوْا إلا الكفر بالله - عز وجل - أهلكهم الله .

أما تفصيل إهلاكهم : فقد قال ابن إسحاق : لما أبوْا إلا الكفر بالله - عز وجل - أمسك عنهم المطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك ، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه ، إنما يطلبونه منه بحرمه ومكان بيته - وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون - ، وكان سيدهم[1] إذ ذاك رجلًا يقال له : معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم

---

(١) أي سيد العماليق .

عاد واسمها : جلهذة بنة الخيبري - قال : فبعثت عاد وفدًا قريبا من سبعين رجلًا ؛ ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه ، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومهم ، واستحيى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرًا يعرِّض لهم بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيلُ ويحكَ قمْ فَهيِّمْ ... لعـلّ اللهَ يمنحنـا غَمامَـا
فيسقي أرض عاد إنّ عـادًا ... قد امسوا لا يُبِينُونَ الكلامَا
من العطشِ الشديدِ فليس نرجو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَا
وقد كـانت نساؤهـمُ بخيـرٍ ... لقـد أمستْ نساؤهـمُ أيَامَـا
وإن الوحش يأتيهـم جهـارًا ... ولا يـخشى لعـاديٍّ سهامَـا[1]
وأنتـم هاهنـا فيمـا اشتهيتـمْ ... نهارُكُـمُ وليلكُـمُ تمامَـا
فَقُبِّحَ وفدكُمْ من وفد قومٍ ... ولا لُقُّوا التحيـةَ والسلامَـا

قال : فعند ذلك تنبه القوم لِمَا جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعَوْا لقومهـم فدعـا داعيهـم - وهو قيل بن عنـز - فأنشـأ الله سحابـات ثلاثًا : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السماء : اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب . قال : فاخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً . فناداه : اخترت رمادًا رمددًا ، لا تبقي من عاد أحدًا ، لا والدًا تترك ولا ولدًا إلا جعلته همدًا ، إلا بني اللودية الهمدا . قال : وهو بطن من عادٍ كانو مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم ، قال : ومَنْ بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة . وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له : المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ﴿ **فلمَّا رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم**

(١) والجزاء من جنس العمل .

قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥] ، أي كل شيء أُمرت به ، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها : فهد ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا فهد ؟ قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار ، أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك ، قال : واعتزل هود عليه السلام فيما ذُكر لي ، هو ومن معه من المؤمنين مما يصيبهم إلّا ما يلين عليهم الجلود ويلذ الأنفس ، وإنما تمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض . قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ [الحاقة : ٦] لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن : ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ [الحاقة : ٧] كوامل متتابعات ، ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ [الحاقة : ٧] مصروعين مجدلين متناثرين ، كأنهم أعجاز نخل بجذوعها وأصولها فارغة ، تآكلت أجوافها ، فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ، كانت الريح تجيء إلى أحدهم فتحمله ، فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ [القمر : ١٩ ، ٢٠] وقال تعالى : ﴿ **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات: ٤١ ،٤٢]. هذه الريح ما أنتجت خيرًا ، ما نثرت سحابًا ولا لقحت شجرًا .

وقال ابن حجر في قوله تعالى : ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾ [الحاقة : ٨] قال البخاري : بقية ، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ويراد به القتل الشديد القوي ، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة[١] اهـ .

وفي الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور » .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٣٥) .

وعن عليّ موقوفًا ، فيما أخرجه ابن أبي حاتم ، قال : « لم ينزل الله شيئًا من الريح إلا بوزن على يدي ملك ، إلا يوم عادٍ فإنه أُذن لها دون الخزّان فعتت على الخزّان »[١].

قال الحافظ في الفتح : كانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جنانا فلما سخط الله - جل وعلا - عليهم جعلها مفاوز[٢] .

عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال : قدمت المدينة ، فدخلت على رسول الله ﷺ فذكرت عنده وافدَ عاد ، فقلت : أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله ﷺ : «وما وافد عاد؟» قال: فقلت: على الخبير بها سقطت ؛ إن عادًا لما أقحطت بعثت قيلًا ، فنزل على بكر بن معاوية ابن وائل ، فسقاه الخمر ، وغنته الجرادتان ، ثم خرج يريد جبال مهرة ، فقال : اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ، ولا لأسير فأفاديه ، فاسق عبدك ما كنت مسقيه ، واسق معه بكر بن معاوية - يشكر له الخمر الذي سقاه - فرفع له سحابات ، فقيل له : اختر إحداهن ، فاختار السوداء منهن ، فقيل له : خذها رمادًا رمددًا ، لا تذر من عاد أحدًا . وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة - يعني حلقة الخاتم - ثم قرأ : ﴿ **إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢] .

قال ابن حجر في حديث : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » أي قتلًا فلا يبقي منهم أحدًا .

لطيفـة

لمّا تجبر قوم عاد ، في ظل ظلل ضلالهم ، حين أملى الأمل وطول البقاء ، وزوي ذكر زوالهم . ومرّوا في مشارع عذاب الملاهي . ناسين مرّ عَذابها ، رافلين في حلل الغفلة عن المنية وآدابها ، أقبل هود يهديهم ، ويناديهم في ناديهم

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٣٤ - ٤٣٥) ومن طريق قبيصة بن ذؤيب أحد كبار التابعين ، نحوه بسند صحيح .

(٢) فتح الباري (٦/٤٣٤) .

﴿ **اعبدوا الله** ﴾ [الأعراف : ٦٥] فبرزوا في عتو ﴿ **من أشد منا قوة** ﴾ [فصلت : ١٥] ، فسحب سحاب العذاب ذَيلَ الإدبار بإقباله إلى قبالتهم ، فظنوه لما اعترض عارض مطر ، فتهادوا تباشير البشارة ، بتهادي بشارة ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فصاح بلبل البلبال فبلبل ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ [الأحقاف : ٢٤]، فكان كلما دنا وترامى ، ترى ما كان كأن لم يكن ، فحنظلت شجرات مشاجرتهم هودا ، فجنى مَنْ جنى من جنا ما جنى[1] ، في مغنى ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم** ﴾ [الأحقاف : ٢٦] فراحت ريح الدبور ، لكي تَسِمْ الأدبار بكيٍّ الأدبار ، فعجّوا منها عجيج الأدبر . فلم تزل تكوى تكوينهم بميسم العدم ، وتلوى تلوينهم إلى حياض دم الندم . وتكفأ عليهم الرمال فتكفى تكفينهم . وتبرزهم إلى البراز عن صون حصون كن يقينًا يَقِينَهم[2] .

فإذا أصبحت أخذت تنزع في قوس ﴿ **تنزع الناس** ﴾ [القمر : ٢٠] وإذا أمست أوقعت عريضهم في عرض ﴿ **كأنهم أعجاز نخل** ﴾ [الحاقة : ٧] فما برحت بارحهم[3] عن براحهم حتى برّحت بهم ، ولا أقلعت حتى قلعت قلوع[4] قلاعهم ، فدامت عليهم آفة وداء ، لا تقبل فداء ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ [الحاقة : ٧] فحسوا ما أذاقهم من سوء ما سوما ، ونسفوا في قفر ﴿ **ألا بعدًا** ﴾ [هود : ٦٠] إلى يمٍّ ﴿ **وأتبعوا** ﴾ [هود : ٦٠] . فلو عبرت في معبر الاعتبار ، لترى ما آل إليه مآلهم لرأيت التَّوى[5] كيف التوى عليهم ، وكفّ النَّوى كيف نوى الدنوّ إليهم ، فانظر في عواقب الخلاف ، فإنه شافٍ كافٍ[6] .

فانظر كيف كان عقاب عاد من جنس أعمالهم .

فعاد لطغيانهم كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] وسواء عماد بيوتهم وقصورهم فهو كناية عن طول أجسادهم ووفرة أموالهم ، وتوافر القوة عندهم ،

---

(١) جنى : من جنى الثمر، ما جنى: من الجناية. (٢) يمنعنهم .

(٣) الريح الحارة . (٤) الشراع . (٥) الهلاك . (٦) المدهش ص٧٧-٧٨.

فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون ، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة[١] .

﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كلّ جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ألا إن عادًا كفروا ربهم ألا بعدًا لعادٍ قوم هود ﴾ [هود : ٥٩ - ٦٠] .

○ ثمــود ○

وهم قوم نبي الله صالح - عليه السلام - وكانوا عربًا من العاربة ، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، بعث الله فيهم رجلًا منهم وهو صالح عبد الله ورسوله ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ، ولا يشركوا به شيئًا ، فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وقد بلغت قلوبهم من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر بشاشة قول نبي الله صالح **﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾** [هود : ٦٢] .

إنها للقاصمة ! فكل شيء يا صالح إلا هذا ! وما كنا لنتوقع أن تقولها ! فيالخيبة الرجاء فيك[٢]

قال ابن كثير :

ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح ﷺ فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ، ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك[٣]- ناقة من صفتها كيت وكيت[٤] ، وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون طويلة من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم النبي صالح - عليه السلام - :

---

(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) . (٢) الظلال (٤ / ١٩٠٧) .

(٣) قال ابن كثير (٣ / ٤٣٦) : يقال لهذه الصخرة : الكاتبة .

(٤) قال ابن كثير (٣ / ٤٣٦) : ناقة عشراء تمخض أي يأخذها الطلق .

أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم ، على الوجه الذي طلبتم أتأمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ . قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له ، ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا ، فلمّا عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيمًا ، ومنظرًا هائلًا ، وقدرة باهرةً ، ودليلًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ، ولهذا قال : ﴿ **فظلموا بها** ﴾ [الإسراء : ٥٩] وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو ، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم ، فهمّ بالإسلام ، فنهاه المشركون فمال إليهم ، وفي هذا يقول رجل من المسلمين يقال له : مهرش بن غنمة بن الذميل - رحمه الله - :

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابَا
عزيـز ثمود كلهـم جميعـا ... فهَمَّ بأن يجيب ولو أجابَا
لأصبح صالحٌ فينا عزيـزًا ... وما عدلوا بصاحبهمْ ذُؤابَا
ولكنَّ الغواة من ال حجـر ... تولـوا بعد رشدهـمُ ذئابَـا[1]

وقال لهم صالح - عليه السلام - : ﴿ **هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ [هود : ٦٤] ، فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يومًا بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ، ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ [الشعراء : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾ [القمر : ٢٨] ، فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم ، واتفق رأيهم على أن

(١) وفي بعض الروايات ذبابا .

يعقروا الناقة ؛ ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم[١] .

قال قتادة : بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها ، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان .

قال ابن كثير :

وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها** ﴾ [الشمس : ١٤] وقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال : ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾ [الأعراف : ٧٧] فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة فدلّ على رضى جميعهم بذلك ، والله أعلم[٢] .

قال ابن كثير :

ذكر الإمام ابن جرير - رحمه الله - وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة أن امرأة منهم ، يقال لها : عنيزة بنة غنم بن مجلز ، وتكنى أم غنم ، كانت عجوزًا كافرة ، وكانت من أشد الناس عداوةً لصالح - عليه السلام - ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل ،وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود ، وامرأة أخرى يُقال لها : صدوف بنة المحيا بن دهر بن المحيا ، ذات حسب وجمال ، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته ، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت صدوف رجلًا يقال له : الحباب . وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة ، فأبى عليها ، فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع بن مهرج ابن المحيا ، فأجابها إلى ذلك . ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جُندع وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا ، يزعمون أنه ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه - وهو سالف - وإنما هو من رجل يقال له : صهياد[٣] ،

---

(١) البداية والنهاية بتصرف (١ / ١٢٦ - ١٢٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٣٧) .

(٣) في البداية والنهاية (١ / ١٢٧) : صبيان .

ولكن ولد على فراش سالف ، وقالت له : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة ! فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستفزا غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ [النمل : ٤٨] ، وكانوا رؤساء في قومهم ، فاستمالوا القبيلة الكافرة ، فطاوعتهم على ذلك ، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى ، فمرّت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهًا لقدار وذمرته[1] ، فشد على الناقة بالسيف ، فكسف عرقوبها[2] ، فخرّت ساقطة إلى الأرض ، ورغت رغاة واحدة تحذر سقْبها[3] ، ثم طعن في لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلًا منيعًا ، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا . ويقال : إنه رغا ثلاث مرات ، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها ، ويقال : بل اتبعوه فعقروه مع أمه ، والله أعلم[4] .

فلمّا فعلوا ذلك ، وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحا - عليه السلام - فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى ، وقال : ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ [هود : ٦٥] .

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقًا عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته : ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١] فلما عزموا

---

(١) ذمرته : شجعته وحثته وحرضته . (٢) كسف عرقوبها : أي قطعه .

(٣) السّقب : ولد الناقة . (٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨) .

على ذلك وتواطئوا عليه ، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح ، أرسل الله - سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح - عليه السلام - وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة . فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، عياذًا بالله من ذلك ، لا يدرون ماذا يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وأشرقت الشمس ، فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] صرعى لا أرواح فيهم ، ولم يفلت منهم أحد ، لا صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى - قالوا : إلا جارية كانت مقعدة - واسمها : كلبة ابنة السِّلْق . ويقال لها : الزريقة . وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فلما رأت ما رأت من العذاب أُطْلِقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء ، فأتت حيًا من الأحياء ، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها ، ثم استسقتهم من الماء ، فلما شربت ماتت .

وفي مسند أحمد عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفجّ ، وتصدر من هذا الفجّ ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يومًا ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله » . فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رِغال ، فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه »[1].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦ / ٤٣٩) : رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن عن جابر يرفعه . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٣٦) : هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم .

عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين ؟ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه ، حتى يبلَّ منها هذه »[١] .

قال تعالى : ﴿ **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** ﴾ [القمر : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة** ﴾ [القمر : ٣١] .

قال الشنقيطي :

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية ؛ لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببًا في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية[٢].

والجزاء من جنس العمل .

لم تبق منهم باقية ، خمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات .

قال تعالى : ﴿ **فقالوا أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذًا لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر** ﴾ [القمر : ٢٤- ٢٥].

إنها الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، ولكن إلى الداعية ، فتستكبر من اتباع فرد من البشر ؛ مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وله تعظيم ، ومِنْ ثم يقولون لأنفسهم : ﴿ **أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذًا لفي ضلال وسعر** ﴾ [القمر : ٢٤] أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم في سُعُر - لا سعير واحد - إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن عمار بن ياسر ، وأحمد في مسنده والنسائي في الخصائص ، والطحاوي ، والبزار ، وقال الهيثمي : رجال البزار موثقون ، غير أن التابعي لم يدرك عمارًا ، وصححه السيوطي والألباني انظر صحيح الجامع ٢٥٨٦ ، والصحيحة ١٧٤٣ .

(٢) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

قال صاحب المنار :

في عذاب ثمود ومدين من سورة الأعراف أنهم أخذتهم الرجفة كما في آيتي ٧٧/٩٠ .

وفي مدين من سورة العنكبوت الآية ٣٧ ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ .

وفي فصلت في ثمود : ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ [فصلت : ١٧].

وفي سورة الذاريات : ﴿ **فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون** ﴾ [الذاريات : ٤٤].

والرجفة هي الهزة والاضطرابة الشديدة ، وهي تصدق باضطراب أبدانهم وأفئدتهم كأرضهم ، فالجامع بين هذه الألفاظ أن الله تعالى أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد ، فرجفوا أو رجفت أرضهم ، وزلزلت من شدتها وخروا ميتين[1] .

قال القاسمي :

قال الرازي : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهي الرجفة ، والطاغية ، والصيحة .

والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيوانًا أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة ، ويقال : طغى طغيانًا ، وهو طاغٍ وطاغية وقال في غير الحيوان : ﴿**إنا لما طغا الماء**﴾ [الحاقة :١١] . أي غلب وتجاوز الحد.

وأما الرجفة : فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد . فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها .

وأما الصيحة : فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة .

وأما الصاعقة : فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة ، قال تعالى : ﴿ **فإنما**

---

(١) المنار (١٢ / ١٥٠) .

هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] فبطل ما زعمه ذلك البعض[١] .

ما ألطف قول عمادة اليمن :

لا تعجبًا لقدار ناقة صالح فلكل عصر ناقة وقـدار[٢]

﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

قال القاسمي :

﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ [الأعراف : ٧٨] أي الصيحة التي يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبدل حركتها عند نزوع الروح .

﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] أي ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها .

يقول الشيخ سيد قطب في لفتة طيبة ، رابطًا بين العمل والجزاء ، مبينًا أن الجزاء من جنس العمل :

﴿ **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

إنه التبجح الذي يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿ **عتوا** ﴾ لإبراز سمة التبجح فيها ؛ وليصور الشعور النفسي المصاحب لها ، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير .

ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ؛ فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك ، وما أجدر العاتي أن يرتجف ، وما أجدر المعتدي أن يعجز . جزاءً وفاقًا في المصير . وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٧ / ٢٧٩٦) .

(٢) روح المعاني للألوسي (١٦٨/٧)، (١٦٨/٨) .

ويدعهم السياق على هيئتهم : ﴿ **جاثمين** ﴾ ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه : ﴿ **فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ [الأعراف : ٧٩] إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ؛ والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب ...

وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين(١) .

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة** ﴾ [القمر : ٣١] وإن كانت في موضع آخر في سورة فصلت توصف بأنها صاعقة ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ [فصلت : ١٣] وقد تكون كلمة صاعقة وصفًا للصيحة ، فهي صيحة صاعقة ، وقد تكون تعبيرًا عن حقيقتها فتكون الصيحة والصاعقة شيئًا واحدًا . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة ، أو تكون الصاعقة أثرًا من آثار الصيحة .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، فعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم ﴿ **كهشيم المحتظر** ﴾ [القمر : ٣١] والمحتظر صانع الحظيرة ، وهو يصنعها من أعواد جافة ، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيمًا . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيمًا تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف .

وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الخامدة !

وهو مشهد مفجع مفزع ، يعرض ردًا على التعالي والتكبر ، فإذا المتعالون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين كهشيم المحتظر(٢)!

وقال تعالى : ﴿ **ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ **وكانو ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين . فأخذتهم الصيحة**

---

(١) في ظلال القرآن (٣ / ١٣١٤) . (٢) الظلال (٦ / ٣٤٣٣) .

مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [الحجر : ٨٢ - ٨٤] .

هذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئًا يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .. هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة ، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور ، وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع ، فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصن موهوب ، صيحة تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين[1] .

لطيفة :

لما أعرضت ثمود عن كل فعل صالح ، بُعث إليهم للإصلاح صالح ، فتعنت عليه ناقة أهوائهم بطلب ناقة ، فخرجت من صخرة صماء تقبقب[2] ثم فصل منها فصيل يرغو ، فأرتعت حول نهي نهيهم منها ، في حمى حماية : **﴿ ولا تمسوها ﴾** [هود : ٦٤] ، فاحتاجت إلى الماء ، وهو قليل عندهم ، فقال حاكم الوحي : **﴿ لها شرب ﴾** [الشعراء : ١٥٥] ، فكانت يوم ورودها ، تقضي دَيْن الماء بماء درها . فاجتمعوا في حلة الحيلة ، على شاطيء غدير الغدر ، فدار قدار حول عطن[3] **﴿ فتعاطى ﴾** [القمر : ٢٩] ، فصاب عليهم صيب صاب صاعقة العذاب الهون ، فحين دنا وديدن ، دمغهم دمار **﴿ فدمدم ﴾** [الشمس : ١٤] فأصبحت المنازل لهول النازل : **﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾** [يونس : ٢٤] صيحة كانت البداية . وصيحة كانت جزاء ونهاية .

اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين ، وانظروا سوء تدبير الخاسرين ، لا بالناقة اعتبروا ، ولا لتعويضهم اللبن شكروا ، وعتَوْا عن النِّعَمِ وبطروا ، وعَمُوا عن الكرم فما نُظِروا ، وأُوعدوا بالعذاب فما حذروا ، كلما رأوا آية من الآيات كفروا .

---

(١) الظلال (٤/٢١٥١-٢١٥٢) . (٢) تقبقب : تصوت. (٣) مناخ .

الطبع الخبيث لا يتغيّر ، والمقدَّر ضَلَالُه لا يزال يتحير ، خرجت إليهم نَاقة من أحسن النَّعَم ، ودرّ لبنها لهم فتواترت النِّعَم ، فكفروا وما شكروا ، فأقبلت النقم .

أعاذنا الله وإياكم من الكفران ، وحفظنا من موجبات الخسران إنه إذا لطف صان[1].

○ قوم إبراهيـــم ○

يقص الله تعالى ما كان بين إبراهيم وقومه ، بعد علمهم بتكسيره كبير أصنامهم : ﴿ **قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم . وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ - ٧٠].

وقال تعالى : ﴿ **قالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] .

قال ابن كثير - رحمه الله -:

شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى جوبة[2] عظيمة ، فوضعوا فيها الحطب ، وأطلقوا فيه النَّار ، فاضطرمت ، وتأججت ، والتهبت ، وعلا لها شرر لم ير مثله قط[3] ، ثم وضعوا إبراهيم - عليه السلام - في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد ، يقال له : هزن[4].

فماذا كان جزاؤه ؟

قال الألوسي :

---

(١) التبصرة ١ / ٩٥ -٩٦ .
(٢) حفرة .
(٣) حتى إن الطير لتمر بها فتحترق من شدة وهجها .
(٤) البداية والنهاية (١ / ١٣٧ - ١٣٨) .

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال : أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم - عليه السلام - بالنار ؟ قلت : لا . قال : رجل من أعراب فارس يعني : الأكراد . ونص على أنه من الأكراد ابن عطية ، وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، واسمه على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي : هيون[1].

وقال ابن كثير :

وجعلوا إبراهيم في كفة المنجنيق ، بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد - قال شعيب الجبائي : اسمه هيزن - فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[2] .

وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله : أراد وضع إبراهيم عليه السلام في المنجنيق ؛ ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخسف به إلى أسفل جزاءً وفاقًا .

﴿ قالوا حَرِّقوه ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

يُروى أنهم بنوا لإبراهيم بنيانًا وألقوه فيه ، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عنه فإذا هو غير محترق يعرق عرقًا ، فقال لهم حارث أبو لوط : إن النار لا تحرقه ؛ لأنه سحر النار ، ولكن اجعلوه على شيء ، وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله ، فجعلوه فوق شيء وأوقدوا تحته ، فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته[3] .

وروى نفس القصة الألوسي في روح المعاني وغيّر اسم أبي لوط إلى هاران.

وزاد : أخرج عبد بن حميد عن سليمان بن صرد وكان قد أدرك النبي ﷺ أن أبا لوط قال - وكان عمه - : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني ،

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٧/٦٧-٦٨). (٢) تفسير ابن كثير (٥/٣٤٥) .

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة القمي النيسابوري ، مطبوع على هامش تفسير الطبري (٩ / ٣٦) طبعة دار الريان للتراث .

فأرسل الله تعالى عنقا من النار فأحرقه[١] .

والجزاء من جنس العمل .

وانظر - رحمك الله - كيف يبدو لك بجلاء أن الجزاء من جنس العمل من هذه الآية : ﴿ **فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] .

قال العلامة القمي :

أججوا نارًا عظيمة وبنوا بناءً عاليًا ، ورفعوه إليه ورموا به إلى أسفل ، فرفعه الله وجعلهم في الدنيا من السافلين ، وفي العقبى من السافلين[٢] .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء : ٧٠] أي : المغلوبين الأسفلين ؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيدًا فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك[٣] .

وقال الألوسي :

فأرادوا به كيدا بسوء احتيال ، فإنه - عليه السلام - لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك ؛ لئلا يظهر للعامة عجزهم : ﴿ **فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] الأذلين بإبطال كيدهم ، وجعله برهانًا ظاهرًا ظهور نار القِرى ليلًا على علم ، على علوّ شأنه - عليه السلام - حيث جعل سبحانه النار عليه بردًا وسلامًا[٤] .

جزاء الوزغ من جنس عمله :

حتى الوزغ كان جزاؤه من جنس عمله ؛ إذ كان مشاركًا لهم ، فقد روى البخاري عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[٥] ، وقال : « وكان ينفخ على إبراهيم »[٦] ووقع في حديث عائشة : أن إبراهيم لما ألقي في

(١) روح المعاني (١٧ / ٦٩) .
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٩ / ٣٦) .
(٣) ابن كثير (٥ / ٣٤٧) .
(٤) روح المعاني (٢٣ / ١٢٦) .
(٥) سام أبرص .
(٦) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

النار لم يكن في الأرض دابة إلا أطفأت عنه ، إلا الوزغ ، فإنها كانت تنفخ عليه ، فأمر النبي ﷺ بقتلها[١] .

وجزاؤها من جنس عملها .

لا بارك الله أرواح الملاعين من قوم إبراهيم .

قال ابن كثير :

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يَغْلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا وسلاما ، ولا يلقّون فيها تحية ولا سلاما ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾[٢] اهـ .

النمرود بن كنعان :

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قال ابن جرير :

قال مجاهد : ﴿ **أنا أحيي وأميت** ﴾ أقتل من شئت وأستحيي من شئت أدعه حيّا فلا أقتله ، وقال : ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران : بختنصر ، ونمرود بن كنعان لم يملكها غيرهم .

قال زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض نمرود ، فكان الناس يخرجون

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٥٥) ، والحديث عند ابن ماجة وأحمد .

(٢) البداية والنهاية (١ / ١٣٨) .

فيمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم يمتار مع مَنْ يمتار ، فإذا مرّ به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت حتى مر إبراهيم ، فقال له : من ربك ؟ قال : ﴿ **الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر** ﴾ قال : فرده بغير طعام . قال : فرجع إبراهيم على أهله فمر على كثيب من رمل أعفر ، فقال : ألا آخذ من هذا فآتي به أهلي ، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم . فأخذ منه فأتى أهله ، قال : فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هي بأجود طعام رأته فصنعت له منه ، فقربته إليه وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام ، فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذي جئت به . فعلم أن الله رزقه فحمد الله .

ثم بعث الله إلى الجبار مَلَكًا أن آمن بي وأتركك على ملكك . قال : وهل رب غيري ؟ فجاءه الثانية : فقال له ذلك ، فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه ، فأمر الله الملك ففتح عليه بابًا من البعوض ، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم ، فأكلت من لحومهم ، وشربت دماءهم ، فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه ، وكان جبارًا أربعمائة عام ، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذي بنى صرحًا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد ، وهو الذي قال الله : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾[1] [النحل : ٢٦] .

قال ابن كثير :

مكثت في منخره أربعمائة سنة ، عذبه الله تعالى بها ، فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة حتى أهلكه الله عز وجل بها[2] .

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ١٨) .

(٢) البداية والنهاية (١ / ١٤١) .

هذا خذلان لرأس الطاغين فكيف بالأذناب الأرذلين .

انظر إلى الذي جادل إبراهيم فجَدَّ لَهُ فجدله[١] ، وأبرز نور الهدى في حجة ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ ، فقابله نمرود يسهى السهو في ظلام ﴿ أنا أحيي ﴾، فألقاه كاللقا على عجز العجز بآفات : ﴿ فأت بها ... فبهت .. ﴾ .

لما استكبر وادّعى الربوبية عاقبه الله بأضعف شيء ؛ بالبعوضة في منخره الذي هو علامة العزة ، فانظر كيف أذله الله ، ونفس مدة ملكه عذبه الله .

والجزاء من جنس العمل .

حكاية سارة - رضي الله عنها - مع جبار من الجبابرة :

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله - عز وجل - قوله : ﴿ إني سقيم ﴾، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ » وقال : « بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة ، فقيل له ، إن هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال : مَنْ هذه ؟. قال : أختي . فأتى سارة قال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخِذَ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي ، فأومأ بيده : مَهْيَم ؟ . قالت : رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره ، وأخدم هاجر ».

قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء[٢].

---

(١) غلبه في الجدل .

(٢) رواه أيضًا مسلم ، والبخاري ، وقد صرّح برفعه في النكاح ، والنسائي ، والبزار ، وابن حبان ، وأحمد .

قال ابن حجر :

اسم الجبار المذكور عمرو بن امرىء القيس بن سبأ ، وأنه كان على مصر ، ذكره السهيلي ، وهو قول ابن هشام في التيجان ، وقيل:اسمه : صادوق ، وحكاه ابن قتيبة وكان على الأردن ، وقيل : سنان بن علوان حكاه الطبري ، ويقال : إنه أخو الضحاك الذي ملك الأقاليم(١).

وعند مسلم : فلما دخلت عليه – أي على الملك – لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة شديدة .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دُعي إلى آلهتهم فقال : ﴿ **إني سقيم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ ، وقوله لسارة : « إنها أختي » ، ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ، أو جبار من الجبابرة ، فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟. قال:أختي . قال : فأرسل بها . فأرسل بها إليه ، وقال : لا تكذبي ، قولي فإني قد أخبرته أنك أختي ، إنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم ، إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر ، فغُطّ(٢) حتى ركض برجله ، قال أبو هريرة : إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هي قتلته ، قال فأُرسل ، قال : ثم قام إليها ... وكذا في الثانية والمرة الثالثة أو الرابعة . فقال : ما أرسلتم إليّ إلا شيطانًا ، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر ، فرجعت فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين ، وأخدم وليدة(٣).

قال ابن حجر :

---

(١) الفتح (٤٥١/٦) .

(٢) أي : كُبِس وعُصِر عصرة شديدة حتى ليكاد يختنق .

(٣) تفرد به أحمد ، وهو على شرط الصحيح ، انظر البداية والنهاية (١٤٣/١) .

ويمكن الجمع بأنه عوقب تارة بقبض يده وتارة بالصراعة[1] .

فانظر لمّا مدّ الجبار يده قبضت يده ، ولما خطا برجله غُطَّ ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

○ قـوم لـوط ○

وقوم لوط هؤلاء هم سكان مدينة سدوم وما حولها من القرى بالأردن ، بطريق الشام مكان البحر الميت الآن ، وكانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوّية ، وأردأهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات ، والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات ، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحلَّ الله بهم من البأس الذي لا يُرَدّ ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مُثلة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألِبَّاء من العالمين ، ولهذا ذكر الله – تعالى – قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين ، فقال تعالى : ﴿ **ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسرِ بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾ إلى أن قال تعالى :

---

(١) فتح الباري (٦/٤٥٣) .

﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم﴾ [الحجر :٦١-٧٦].

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر ﴾ [القمر : ٣٤ - ٣٩] .

لنقف مع هؤلاء القوم وتصوير القرآن لجرمهم وقفة .

قال المفسرون : لما فصلتِ الملائكة من عند إبراهيم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان ؛ اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطًا - عليه السلام - وذلك عند غروب الشمس ، فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره ، وحسبهم بشرًا من الناس ﴿ سيىء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب ﴾ [هود : ٧٧] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما نعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحدًا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه ، وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا ، فاستحى منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية ، وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء ، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلًا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أُمِروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك[1].

وانظر كيف يصور القرآن الكريم مجيء الظالمين إلى بيت نبيهم لوط ، قال تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ [الحجر : ٦٧] .

لقد تسامعوا أن في بيت لوط شبابًا صباحَ الوجوه ، ففرحوا بأن هناك

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير (١ / ١٦٨) .

صيدًا ، والتعبير على هذا النحو يكشف مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور ، في الفاحشة الشاذة المريضة ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعةً يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية ، هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع ، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، أو يتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء ، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس ، وإن الفطر السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية ، بل حين تكون شرعية ، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك ، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ؟ إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

وفي موقف آخر يقول الله تعالى : ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه** ﴾ [هود : ٧٨] . رأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد المندفعين إلى داره ، يهددونه في ضيفه وكرامته ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر** ﴾ [القمر : ٣٦ - ٣٧] بلغ بهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - قد حسبوهم غلمانًا صباحًا فهاج سعارهم الشاذ الملوّث القذر ، وساوروا لوطًا ، يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي أنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

ولقد حاول نبي الله لوط أن يوقظ فيهم الفطر السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال : ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم** ﴾ [هود : ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم - وهن بناته شرعًا ؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، وهو الذي نص عليه مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن إسحاق ، وقتادة ، وهو الصواب - أطهر بكل معاني الطهْر : النفس ، والحس ، فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة : نظافة

فطرية ، ونظافة أخلاقية ، ودينية . ثم هن أطهر حسيا ، حيث جعلها الله بقدرته للحياة الناشئة مكمنا كذلك طاهرًا نظيفًا .

﴿ **فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي** ﴾ [هود : ٧٨] قالها يلتمس نخوتهم ، وتقاليد البدو في إكرام الضيف ، وقف يستثير النخوةَ الآدمية فيهم ، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع .

﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ [هود : ٧٨] فالقضية قضية رشد وسفه ، إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة ، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة ، وظلت الفورة المريضة في اندفاعها المحموم .

وبدلًا من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء ، إذا هم يَتَبَجَّحُون ، فيؤنبون لوطًا على استضافة الرجال ، كأنما هو الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة ، ودفعهم إليها ، وهم لا يملكون له دفاعا !! ﴿ **قالوا أولم ننهك عن العالمين** ﴾ [الحجر : ٧٠] .

﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ [هود : ٧٩] وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأُسقط في يد لوطٍ وأحس ضعفه ، وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ﴿ **قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾ [هود : ٨٠] وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي إلى ركن شديد ، ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه ، كما قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية[1] :

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا – عليه السلام – جعل يمانع قومه الدخول، ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم ،

---

(١) (١ / ١٦٩) .

وينهاهم من وراء الباب ، وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه ، فطمست أعينهم ، حتى قال : إنها غارت بالكلية ، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شأن . فتقدمت الملائكة إلى لوط ، آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ، ولا يلتفت منكم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حلّ بقومه ، إلا امرأتك سيصيبها ما أصابهم .

فلما جاء الأوان اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهنّ - وكُن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم ، فقالوا : إنهم كانوا أربعمائة نسمة ، وقيل : أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ [الحجر : ٧٤] ، [هود : ٨٢] وهو الشديد الصلب القوي ﴿ **منضود** ﴾ [هود : ٨٢] أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء ، ﴿ **مسومة** ﴾ [هود : ٨٣] يعني معلمة ؛ مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه .

فكيف كان جزاؤهم من جنس عملهم ؟

قال تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ [النمل : ٥٦] .

تهكموا منهم بالتطهر من هذا الرجس القذر ، وقد يكون إنكارًا عليه أن يسمى هذا تطهرًا فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة ، وقد يكون ضيقًا بالطهر والتطهر ، إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!.

لمّا عميت بصيرتهم أعمى جبريل أبصارهم ﴿ **فطمسنا أعينهم** ﴾ [القمر : ٣٧].

لمّا قلبوا الفطرة ، قلب الله قراهم ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها** ﴾ [هود : ٨٢]، [الحجر : ٧٤] .

يقول الشنقيطي :

قوم لوط لكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث ، فكان الجزاء من جنس العمل قلب الله عليهم قراهم ، والعلم عند الله تعالى . اهـ[1].

قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : ٥٣] يعني المنقلبة أهوى بها منكسة عاليها سافلها .

﴿ وجعلنا عاليها سافلها ﴾ [هود : ٨٢] .

يقول الشيخ سيد قطب :

هي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها ، وهذا القلب ، وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة ، المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان ، بل أحط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند فطرة الحيوان[2] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين ﴾ [النمل : ٥٨] .

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله -:

ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له ، وهو أن يكون مادة حياة وخصب ، والله أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره ، إن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير[3] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الشيخ سيد قطب :

وقد أمطروا مطرًا مهلكًا ، مع ما صاحبه من عواصف ، ترى كان هذا

---

(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٣) . (٢) الظلال (٤ / ١٩١٥) .

(٣) الظلال (٢٦٤٨/٥) .

المطر المغرق والماء الدافق ؛ لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه ، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه[١] .

وقال تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل** ﴾ [هود : ٨٢] .

حجارة ملوثة بالطين ، وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام .

﴿ **منضود** ﴾ [هود : ٨٢] متراكم متتابع ، مثل تتابعهم على بيت لوط .

﴿ **مسّومة عند ربك** ﴾ [هود : ٨٣] كما تسوم الماشية أي تربى وتطلق بكثرة ، فكأنما هذه الحجارة مرباة ومطلقة ؛ لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة .

قال الشنقيطي : السجيل هو الطين الشديد القوي يصدق ذلك : ﴿ **لنرسل عليهم حجارة من طين** ﴾ [الذاريات : ٣٣] وقال الراغب : حجر وطين مختلط .

﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ [الحجر : ٧٦] .

من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غيّر الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة[٢] ؟ . وجعل مكانها بحيرة منتنة .

لما أعرضوا عن الطهارة ماذا كان جزاؤهم ؟

يقول ابن كثير :

جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة ، لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها ؛ لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة ، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذّب رسله ، واتبع هواه ، وعصى مولاه .

فناسبت نتانة البحيرة نتنهم .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٣ / ١٣١٦) .

(٢) البداية والنهاية (١/١٧١).

قال القاسمي :

قال المهايمي : ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم في صورة عذاب .

لطيفة :

نهى لوط قومه عن تعاطي الفواحش التي ذكر الله عنهم ، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا حتى ولا رجلٌ واحد منهم ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون ، إلا أن قالوا : ﴿**أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾.

فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج ، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج ، فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم في محلتهم خالدين ، لكنْ بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج ، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأججّ ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أُجاج .

ولهذا صاروا مُثْلَة فيها ، وعبرة لمن عليها ، كانوا يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، يأتون في ناديهم المنكر ، حتى قيل : إنهم يتضارطون في مجالسهم ، ولا يستحيون من مجالسهم .

أمرهم لوط بقربان نسائهم ، وحذرهم من طريقتهم وسيئاتهم ، وهم في ذلك لا ينتهون ، ولا يرعوون ، بل كلما نصح لهم يبالغون ويحرضون ، لم يعلموا ما حمّ به القدر وما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى: ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [الحجر : ٧٢] .

عن أبي جعفر – محمد الباقر – قال : قلت لمحمد بن علي – بن الحنفية – : أعذّب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟. قال : الله أعدل من ذلك ؛ استغنى النساء بالنساء ، والرجال بالرجال ، قال حذيفة – رضي الله عنه –: إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء ، والرجال بالرجال[١].

فالعاقل اللبيب يقبل ما أرشده إليه الرسول الحبيب ، من إتيان ما خلق

---

(١) تفسير المنار (٥٢٢/٨) .

من الزوجات الحلال ، والجواري من السراري ذوات الجمال ، ولا يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ [هود : ٨٣] .

لطيفة :

لما تنادى قوم لوط جهات جهلهم : ﴿ **أخرجوا آل لوط** ﴾ بُعثت الأملاك لانتزاع مِلاك الحياة من أيديهم ، فنزلوا من منزل لوط منزل التنزيل ، وهم في أفسح بيت بني من الكرم ، غير أن حارس حذره ينادي ﴿ **وضاق بهم ذرعا** ﴾ ، فخاف من قومه أذاهم ، لما تهاووا في هُوّة هواهم ، لا يرعوون ، جاءه ضيف ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه**﴾ فدافع بمشورة: ﴿**هؤلاء بناتي**﴾ وتارة بتقاة : ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ ، وتارة بسؤال : ﴿ **ولا تخزون** ﴾ وتارة بتوبيخ : ﴿ **أليس منكم** ﴾ فلما كَلّ كل سلاحه ، وأعيته جهات جهاده ،أنَّ برمز ﴿ **لو أنّ** ﴾ ، فحجبهم جبريل بحجاب : ﴿ **فطمسنا** ﴾ ، وانتاشه مِنْ أَسْرِ الغم بلفظ : ﴿ **فأسر** ﴾ ، فلما علم أن الملأ ملائكة ، تشوق إلى تعجيل التعذيب ، فنادت عواطف الحلم : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ ، فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة ، إلا عجوز العَجْز عن عرفان المعجز فإنها لحقت بالعجزة ، فلما لاح مصباح الصباح ، احتمل جبريل قُرى مَنْ جَنَى على قَرَا[1] جناحه ، فلم يُكسَرْ وقتَ رفعهم إناء ، ولم يُرق وقت صعودهم ماء ، فلما سمع أهل السماء نُباح كلابهم ، أسرعت كفّ القِلى بهم في انقلابهم .

فتفكر بالقلب ، كيف جوزوا على قَلْب الحكمة بالقلب ، ثم بعث إليهم سحاب : ﴿ **وأمطرنا** ﴾ فاستقل لهم سد ، سد جرمه الأفق على وفق جرمهم ، فأجيل على الجيل سجل السجيل ، فما برح حتى برح ، ودار هاتف العبرة على دارس دارهم ينادي : ﴿ **ولقد تركنا منها آية ...** ﴾ [العنكبوت : ٣٥] .

قولوا لمن خرج عن الشرع في طلب هذه الفاحشة وشَرَد ، قد رمى القوم

---

(١) القَرَا : الظهر .

بالحجارة وخوفهم بالبَرد . فليحذر العازمون على طروق طريقهم من وعيد : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

○ مدين قوم شعيب ○

كان أهل مدين قومًا عربًا ، يسكنون مدينتهم مدين ، التي هي قرية من أرض معان في أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، وكان بها غيضة من الأشجار فأرسل الله إليهم أخاهم شعيبًا .

وعن أبي ذر الغفاري قال رسول الله ﷺ : « أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر »[1] .

قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٨٧] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : ٨٤ - ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، وهو صحيح .

ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٨٩] .

كان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ، ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهي شجرة من الأيك ، حولها غيضة(١) ملتفة بها ، وكانوا من أسوإ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون(٢) فيهما ، يأخذون بالزائد ، ويدفعون بالناقص ، فبعث الله إليهم شعيبًا ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد .

ونهاهم عن الظلم **﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾**(٣) .

قال ابن عباس : كانوا قومًا طغاة بغاة ، يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس يعني يعشرونهم ، وكانوا أول من سن ذلك .

﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية .

وذكّرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة : **﴿ واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾** وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعذابه الأليم في أخراهم .

﴿ بقية الله خير لكم ﴾ القليل من الحلال خير لكم من الكثير من

---

(١) مجتمع الشجر . (٢) الطفيف : القليل .

(٣) أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك ، وتخيفون السبل .

الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قلّ ، وإن الحرام ممحوق وإن كثر .

﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [هود : ٨٩] معناه في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ممّا بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم .

وقيل : معناه ما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان .

وقيل : في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية ، بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن ، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات .

فماذا كان موقف أهل مدين :

في تبجح تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، يقولون قولة فاجرة : **﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا ﴾** [الأعراف : ٨٨] .

وقالوا أيضًا : **﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾** [هود : ٨٧] .

وهو رد واضح التهكم ، بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، وإن كانت سخرية الجاهل المطموس والمعاند بلا معرفة ولا فقه ، يتوقّح القوم بالسخرية فيقولون : **﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾** وهم يعنون عكس معناها ، فالحلم والرشد عندهم ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق .

وقالوا أيضًا : **﴿ يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾** [هود : ٩١] فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه ، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة **﴿ وإنّا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ﴾** [هود : ٩١] ففي حسابهم عصبية العشيرة لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لا صلة القلب ، ثم هم يغفلون عن غيرة الله على

أوليائه ، فلا يضعونها في الحساب .

﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ [هود : ٩١] . حين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة ، فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ، ولا تتحرج عن البطش بالداعية ، إلا أن تكون عصبة تؤيده ، وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه ، أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية .

يقول لهم نبيهم شعيب : ﴿ **يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ [هود : ٩٢] أهؤلاء أشد قوةً ورهبة في نفوسكم من الله ، لا تلتفون إليه : ﴿ **واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ ترك وإعراض وشناعة فعل .

وقالوا له أيضًا : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ [الشعراء : ١٨٥] فهو عندهم من المسحورين يخلط ويهذي ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا**[1] **من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٦، ١٨٧] في تحدي المستهتر الهازىء المستهين ، طلبوا منه أن يسقط عليهم جانبا من السماء ، أو كما يقول قتادة : قطعا من السماء إن كان من الصادقين .

قال ابن حجر :

جاء عن قتادة : أنه – أي شعيب – أرسل إلى أمتين : أصحاب مدين ، وأصحاب الأيكة ، ورجّح بأنه وُصف في أصحاب مدين بأنه أخوهم بخلاف أصحاب الأيكة ، وقال في أصحاب مدين ﴿**أخذتهم الرجفة**﴾ و ﴿**الصيحة**﴾ وفي أصحاب الأيكة ﴿ **أخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ .

والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة ، وأجابوا عن ترك ذكر الأخوة في أصحاب الأيكة ؛ بأنه لما كانوا يعبدون الأيكة ، ووقع في صدر الكلام بأنهم أصحاب الأيكة ناسب ألا يذكر الأخوّة ، وعن الثاني بأن المغايرة في أنواع العذاب إنْ كانت تقتضي المغايرة في المعذبين فليكن الذين عُذبوا بالرجفة

---

(١) يقول أبو عبيدة : الكَسْف جمع كِسْفَة ، والكِسْف والكِسَف جمع كِسْفَة .

غير الذين عذبوا بالصيحة ؛ والحق أنهم أصابهم جميع ذلك ، فإنهم أصابهم حر شديد ، فخرجوا من البيوت فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فرجفت بهم الأرض من تحتهم ، وأخذتهم الصيحة من فوقهم[1]. اهـ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: إن الله سلّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ سحابة فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها بردًا وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها فأُجّجت نارًا ، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عُذِّبُوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلًا أطيب ولا أبردَ من هذا ، هلمّوا ، أيها الناس ، فدخلوا جميعًا تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ .

وسُئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : بعث الله عليهم وَمَدَة[2] وحرًّا شديدًا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية ، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله على الناس ، قال ابن عباس : فذلك : ﴿ **عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾[3] .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٥١٨ - ٥١٩) .
(٢) نديٌ من البحر يقع على الناس في شدة الحر وسكون الريح .
(٣) ابن كثير (٦ / ١٧٠ - ١٧١) .

فكيف كان الجزاء من جنس العمل ؟

قال ابن كثير :

قد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات ، وصنوفًا من المثلات ، وأشكالًا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ؛ سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدتِ الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار في سائر أرجائها والجهات ، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ، ويوافق طباقها :

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودنّ في ملتهم راجعين ، فقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ ، فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ، ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ﴿ **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ [هود : ٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم ، مع رجفة أسكنتهم .

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٦- ١٨٧] .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان :

أحدهما: أنه قال: ﴿**كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب**﴾

[الشعراء: ١٧٦-١٧٧] و لم يقل:أخوهم كما قال: ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبًا**﴾ [هود: ٨٤].

والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله : ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ [الشعراء : ١٧٦] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا ، ولمَّا نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلًا على أنهما أمتان أخريان ؛ وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن .

قال ابن كثير :

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٠ - ٩٢] وهذا في مقابلة قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾[1] .

والجزاء من جنس العمل .

ولننظر إلى عبارات المفسرين التي تدور حول هذا المعنى .

قال الألوسي :

﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا[2] فيها** ﴾ [الأعراف : ٩٢] أي لم يقيموا في دارهم ، عوقبوا بتوعدهم السابق بالإخراج ، وصاروا هُم المخرجين من القرية إخراجًا لا دخول بعده دون شعيب[3] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ١٧٧ - ١٧٨) .

(٢) قال البخاري : يغنوا : يعيشوا .

(٣) روح المعاني للألوسي (٩ / ٦ - ٧) .

وقال الألوسي: في قوله تعالى : ﴿ **الذين كذّبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] .

الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بقولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠]فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم ، لا المتبعون لشعيب عليه السلام ، الرد عليهم بعين ما تلفظوا به ، ما جعلوه نصيحة صار فضيحة(١) .

قال القرطبي :

﴿ **الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ولما قالوا : من اتبع شعيبًا خاسر ، قال الله:الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول(٢) .

قال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] .

يقول الشيخ سيد قطب :

الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ، ويرد السياق على قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠] وهي التي قالوا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ، فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، إنما كان من نصيب قوم آخرين .

﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين ، لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار .

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذي كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن

---

(١) روح المعاني (١٩ / ١٢٠) .
(٢) القرطبي (٤ / ٢٦٨٨) .

مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم في الغابرين ﴿ **فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ [الأعراف : ٩٣][1] .

خلت منهم الدُّور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأنْ لم يعمروها حينًا من الدهر ، مضوْا مشيعين باللعنة ، طُويت صفحتهم السوداء في الوجود ، وصفحتهم في القلوب ﴿ **ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ [هود : ٩٥] .

يقول ابن كثير :

لما قالوا : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾ [الأعراف : ٨٨] ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] أرجفوا بنبي الله ومَنْ اتبعه ، فأخذتهم الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا .....** ﴾ [هود : ٨٧] .

قال ابن كثير :

لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ، وتهكموا به ، فجاءت الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .

وقال رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ...** ﴾ [الشعراء : ١٨٧ - ١٨٩] وكذلك وقع بهم كما سألوا جزاءً وفاقًا ، فقال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ [الشعراء : ١٨٩] وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكسف عليهم ، قالوها على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه .

(١) الظلال (٣ / ١٣٢٢) .

وقال ابن كثير – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ .

كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بدارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، ثم قال مقابلًا لقيلهم : ﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩١] .

وقال – رحمه الله– :

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن في الأعراف ، وهود ، والشعراء ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا[1] .

يقول الألوسي :

في إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها ؛ إيذانًا بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة ، وفي ترك بيانه تعظيم لأمره[2] .

نكت بلاغية :

قال تعالى في سورة هود في قصة ثمود ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا** ﴾ [هود : ٦٦] وقال في هود ومدين ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هودًا** ﴾ [هود : ٥٨] ، ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا** ﴾ [هود : ٩٤] .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

من دقيق نكت البلاغة في الآيات في قوله تعالى في إهلاك مدين هنا ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا** ﴾ فعطف لمّا على ما قبلها بالواو ، ومثله في قوم هود ، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود وقصة قوم لوط ، ووجه هذا الأخير أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب ، واستحقاقه وحلول موعده ، فعطفتا بالفاء الدالة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٤٤٥) ، (٤ / ٢٧٧) ، (٥ / ١٧٠) .
(٢) روح المعاني للألوسي (١٩ / ١٢٠) .

على التعقيب ، وأما عطف مثلهما في قوم هود ، وقوم شعيب فليس كذلك ، فعطف بالواو على الأصل ، أما الأول فظاهر ؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب ، وأما الثاني ففيه وعيد مسوّف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب ، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التعقيب بدون انفصال ، فهلْ تَصَادَق مثل هذه الدقائق اللغوية في غير القرآن[1]. اهـ .

لطيفـة :

وبقي من أهل العيب قوم شعيب ، لما رأى شعيب شعاب قومه قد امتلأت بالجور ، صعد منبر التذكير بالإنعام ، ولكن بَيْنَ الأنعام ، فخوّفهم من قحل[2] القحط في إشارة ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ فتلقوه باستهزاء ﴿ **أصلاتك** ﴾ ، ومدوا نحوه باع النخوة : ﴿ **لنخرجنك** ﴾ وتعللوا . بحجة ﴿ **ما نفقه** ﴾ ، وانتهوا إلى عتو ﴿ **فأسقط علينا** ﴾ ، فأظل على ظلل ضلالهم : ﴿ **عذاب يوم الظلة** ﴾ ، فارتجت أرجاء بيوتهم برجّ الرجفة ، وشدّت عليهم شدة الحر ، فهربوا إلى البَرِّ لا إلى البِرّ ، فإذا سحابة تسحب ذيل برْد البَرد ، فتنادوا هلموا إلى راحة الرَّوْح ، فلما تم اجتماعهم في قصر الحصر ، وظنوا أنها من حَرُوقَتِهم وَقْتُهُم ، نزلت بهم نار فأحرقتْهم ، فساروا إلى جهنم في أسر إدبارهم ، وسار بعد بعدهم في أدبارهم ، نذير التحذير من تبديرهم ، وعابهم في عقاب عقابهم ﴿ **ألا بعدًا لمدين** ﴾ فليحذر العصاة مثل أفعى أفعالهم ، وليتقِ أعمى البصيرة شبه أعمالهم ، وليخف المطففون من أخذ التطفيف في مكيالهم ، وليسمعوا نذير العبرة ، فقد أوحي إليهم بشرح أعمالهم .

○ فرعـون ○

انظر كيف كان جزاء هذا الطاغوت المطموس المتعجرف المتكبر من جنس

---

(١) تفسير المنار (١٢ / ١٥٠) .

(٢) يبس .

قوله وعمله .

انظر كم ذبح من الأطفال من أجل ذبح موسى ، ولسان القدر يصيح به : لن نربيه إلّا في حجرك .

قال الله تعالى : ﴿ إن فرعون عَلَا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [القصص : ٤ - ٦] .

تجبر وعتا وطغا وبغى وآثر الحياة الدنيا ، وجعل أهلها شيعًا ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ، ومع هذ **﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾** وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح ؛ أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما حفظوه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك مصر على يديه ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ؛ حذرًا من وجود هذا الغلام ، فجعل رجالًا وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذابحون من ساعته .

لقد ولد موسى والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه تهمّ أن تحتز رأسه ، وها هي ذي أمه خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين ، ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته

الفطري أن ينمّ عليه .

ويوحي الله إليها أن ترضعه ، فإذا خافت عليه فلتلقه في اليم ، فهو في رعاية الله الذي لا أمن إلا في جواره ، لا خوف معه ، لا تقرب المخاوف من حماه ، الذي جعل النار بردًا وسلاما ، ويجعل من ثبج البحر ملجأ ومنامًا .

يقدر الطاغوت شيئا ، ويقدر الله شيئا غيره ، والله يريد غير ما يريد فرعون .

وإرادة الله وقدرته تتحدى ، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما ، إنهم ليتبعون الذكور من بني إسرائيل خوفًا على ملكهم وعرشهم وذواتهم ، ويبثون العيون والأرصاد كي لا يفلت منهم ذكر ، فها هي ذي إرادة الله تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكي وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين ، ها هي ذي تلقيه في أيديهم ، مجردًا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزًا عن نفسه ، أو حتى يستنجد ، ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه ، وهو الطاغية السفّاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهن الوالدات ، ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية ؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، عدوًّا يتحداهم ، وحزنًا يدخل الهمّ على قلوبهم .

يا فرعون: موسى لن يكون مربّاه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولن يُغَذَّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعدّاه ، ولا تطلع على سر معناه ، لتعلم أن رب السموات هو الفعّال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد .

اقتحمت إرادة الله على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف ، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال ، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة ، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الرضيع الضعيف بغير هذا الستار الشفيف ، إرادة الله وقدرته ترعى موسى ، تدبر أمره .

قال تعالى : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون** ﴾ [القصص : ٩] فقال فرعون : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . والبلاء مُوكل بالمنطق ، يداك أوكتا وفوك نفخ ، فكان كذلك وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه .

إرادة الله تكيد لفرعون وآله ، كما كادوا لبني إسرائيل ، تحرم عليه المراضع ، يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وهم يخشون عليه الموت والذبول ، حتى تبصر به أخته من بعيـد ، فتعرفه فتقول : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ [القصص : ١٢] ، فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون ، يودون لو تصـدق فينجو العزيز المحبوب ، ويعود الطفل الغائب لأمه الملهوفة .

من لجأ إلى الله وتوكل عليه ، وفوّض الأمور إليه ، يكن حاله كحال أم موسى ترضع ولدها ، وتأخذ كظئر أجرها .

فكيف كان جزاء فرعون من جنس قوله وعمله ؟

دعاه موسى إلى عبادة الله عز وجل ، فأعرض واستكبر ﴿ **ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون** ﴾ [الزخرف : ٥١] .

أليس لي ملك مصر !! يا هذا حمارك ينهق من كف شعير ، وما تساوي مصر ؟ إن كانت الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

وقال موسى : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ [يونس : ٨٨] .

قال ابن عباس ومجاهد : اطمس على أموالهم : أهلكها .

وقال الضحّاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت .

وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم تحولت .

وقال محمد بن كعب القرظي : اجعل سكرهم حجارة .

فما كانت النهاية : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾ [الدخان : ٢٥] .

قال فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي .. ﴾ [الزخرف : ٥١] .

إن الذي ينسى نعمة الله عليه . ويتيه بها ، يعذبهِ الله بها وينغص عليه بها ، فكانت معظم الآيات تدور حول الماء الذي تاه به واستكبر . هذا في حياته .

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكّرون ﴾ [الأعراف : ١٣٠].

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

يا فرعون ، الطوفان ماء من جنس ما تفتخر به ، ولكنه متلف للزروع والثمار .

والقُمَّل : قال ابن جرير : واحدتها قمّلة ، وهي دابة تشبه القَمْل ، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : البراغيث .

كأن الماء لم يُجْد شيئًا في نظافتك ، فها هي البراغيث والضفادع ، تتعصى عليك في قدحك وآنيتك وثوبك .

والدم ، استحال نهرك دما عبيطًا ، فما جدوى نهرك ومياهك .

الآيات التي نغّصت عيشك من جنس ما استكبرت به ، ومتعلقة بالماء .

قال ابن جرير :

عن سعيد بن جبير قال : لمّا أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل ، فأرسل الله عليهم الطوفان ، وهو المطر ، فصبّ عليهم منه شيئًا ، خافوا أن يكون عذابًا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنّا المطر ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ ،

فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى ، فقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك ، ليكشف عنّا الجراد ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فدرسوا الحب وأحرزوه في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا القمل ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا . قال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ . فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل [فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يؤمنوا] . وأرسل الله عليهم الدم ، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار ، وما كان في أوعيتهم ، وجدوه دمًا عبيطًا[1] ، فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنه قد سحركم !! فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دما عبيطًا[2] ؟

قال ابن إسحاق :

تابع الله عليهم الآيات ، وأخذه بالسنين ، فأرسل عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ، ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا أو

---

(١) أي دمًا طريًا .

(٢) ابن جرير (٦ / ٢٥) .

يعملوا شيئًا ، حتى جُهدوا جوعًا ، فلما بلغهم ذلك: **﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾** [الأعراف : ١٣٤] فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر - فيما بلغني - حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فُذكر لي أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملًا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فأجهدهم ، قالوا له مثلما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والآنية والأطعمة ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلّا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل الله ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دمًا ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا .

يالله .. هان فرعون على ربه حتى ما يساوي ضفدعًا ولا جرادًا .

هانوا عليه فعصوه وكفروا به ؛ ولو عزوا عليه لعصمهم .

أيها المعرض عنَّا إن إعراضك منَّا
لو أردناك جعلنا كل ما فيك يُردنَا

عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برّية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت ، وجعلت تغرق أنفسها في القدور وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور ، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء .

والجزاء عند الله من جنس العمل .

قال ﷺ : « لا تقتلوا الضفادع ... »[١] .

وقال ﷺ : « لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم »[٢] .

وكان غرقه في جنس ما افتخر به .

قال الشنقيطي :

أما فرعون ، فقد كان يقول : ﴿ **أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي** ﴾ [الزخرف : ٥١] فلمّا كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها ، أي في جنسها[٣] .

قال تعالى : ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى** ﴾ [طه : ٦٠] .

كاد فرعون فكيد له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأُذل وأذيق البأس .

﴿ **قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى . قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ [طه : ٦١ - ٧٣] .

هزأ به من جمعهم لموسى ومن قالوا له يومًا : ﴿ ... **أئنّ لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين** ﴾[الشعراء : ٤١] ومَنْ قالوا يوما : ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ [الشعراء : ٤٤] .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر وواجهته بكلمة الإيمان

---

(١) صحيح : رواه النسائيّ عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٦٧ ، وانظر الأحاديث الضعيفة ٤٧٨٨ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والبيهقي عن أبي زهير ، والطبراني في الأوسط ، وابن منده ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٦٥، والأحاديث الصحيحة رقم ٢٤٢٨ .

(٣) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصع ، وبرجاء الإيمان العميق .

وقال تعالى : ﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٣] .

قال القشيري :

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستئصالهم وأراد الحق نصرتهم وبقاءهم ، فكان ما أراد الحق لا ما أراد اللعين(١).

وقال تعالى : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون** ﴾ [الشعراء : ٥٤ – ٥٦] .

يقول ابن كثير :

نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم ، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، فخرجوا من النعيم إلى الجحيم(٢).

وقال تعالى : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ...** ﴾ [القصص : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فلم جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر : ٢٥] .

منطق الطغيان الغليظ ، فكلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلي الحق .

قال ابن كثير :

نكل فرعون ببني إسرائيل قبل ولادة موسى ؛ حذرًا من وجوده ، فكان خلاف ما رامه ، وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضًا ، إنما

---

(١) لطائف الإشارات (٤/٤٤) . (٢) تفسير ابن كثير (٦ / ١٥٢) .

أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، نصرهم الله عليه ، وأذله وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده[1] .

لما استذل فرعون بني إسرائيل أورثهم الله ملكه .

قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ [الشعراء : ٥٧ - ٥٩] .

لقد خرجوا يتبعون خطى موسى وقومه ، ويقفون أثرهم ، فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة ، وكانت إخراجًا لهم من كل ما هم فيه ، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم جزاء الظلم والبطر والبغي الوخيم ، لما اقتفوا أثر المؤمنين .

وقال تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومًا آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ [الدخان : ٢٥ - ٢٩] .

يقول سيد قطب :

انظر إلى هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطيء له الملأ المفتونون به ، وهو أضل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثي له أحد على سوء المآل ، لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها ، ذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين في الأرض ، يطأون الناس بالنعال ، ذهبوا غير مأسوف عليهم[2] .

يقول القشيري :

تكبر فرعون بغير حق فأقمأه الله بحق ، وتجبّر بغير استحقاق ، فأذله الله

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٥٧) .

(٢) الظلال (٣٢١٤/٥) .

باستحقاق ، ﴿ **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ [القصص : ٣٩ - ٤٠] .

أبى إلا أن يدوم جحوده وعنُوده ، فأغرقه الله في البحر ، كما أغرق قلبه في بحر الكفر[١] .

« من لا يرحم لا يُرحم » .

هذا الطاغية الذي ذبح الطفولة وملاحتها وبراءتها المحبوبة ، ولثغتها التي تبتسم لها القلوب والوجوه ، كذا لم يرحم في دنيا ولا آخرة .

يقول رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حمأ البحر[٢] ، فأدسه في فيّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة »[٣] .

قال تعالى : ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة** ﴾ [القصص : ٤٢] واللعنة طرد من الرحمة .

صار مآله إلى الطين المنتن ، ألم يقل يوما لهامان : يا هامان ، أوقد لي على الطين .

واليوم كما يقول الله تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم** ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

يقول صاحب الظلال :

ضربة واحدة فإذا هم هالكون ، ومن التعالي والتطاول والاستكبار إلى الهويّ في الأعماق والأغوار جزاءً وفاقًا[٤] .

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (٥ / ٥٤) .

(٢) حمأ البحر : طينه الأسود المنتن .

(٣) صحيح ، رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٠١٥ ، والطيالسي ، وابن جرير ، والخطيب في التاريخ - صحيح الجامع ٤٢٢٩ . قال الحاكم : صحيح على شرطهما ، وأقره الذهبي في التلخيص .

(٤) الظلال (٣ / ١٣٦٠) .

لقد سقطت من فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي كل أرديته التي تنفخ فيه ، فتضاءل وتصاغر واستخذى ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ [يونس : ٩٢] لا تذهب منكرًا مع التيار ، هذا الذي تطاول وقال : ﴿ **ذروني أقتل موسى وليدع ربه** ﴾ [غافر : ٢٦] كلمة فاجرة من فرعون كانت تبجحًا واستهتارًا ، لقي جزاءه بها في نهاية مطافه .

قال تعالى : ﴿ **كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ [القمر : ٤٢].

ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغي والظلم ، ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم ، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر صدقًا ، أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت .

لما تطاول فرعون وقال : ﴿ **فأوقد لي يا هامان على الطين..** ﴾ [القصص : ٣٨] ، فكان ألهويّ إلى الأعماق والأغوار ، ونتن الطين في فمه يوم الغرق في عاشوراء جزاء للقولة الفاجرة .

﴿ **فأوقد لي يا هامان** ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ [غافر : ٤٦] .

قال ابن كثير :

الغرق في اليم ، ثم النقلة إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار .

قال تعالى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، قالها فرعون لقومه الذين استخفهم ، ويعني بها نبي الله موسى ، وهو الشريف الرئيس الصادق البار المرشد ، فكان جزاؤه من جنس قولته ، أنه هو المهين الحقير خلقة ودينًا ومالًا ..

قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ [القصص : ٤١ - ٤٢] .

يقول القشيري :

لا لشرفهم جعلهم أئمة ، ولكن لسبب تلفهم قدّمهم في الخزي والهوان على كل أمة ، ولكن لم يُرشدوا إلّا إلى الضلال ، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال ، وما حصلوا إلا على سوء الحال ، وما ذاقوا إلا خزي الوبال ، أفاضوا على متبعيهم من ظلمات قلوبهم ، فافتضحوا في خسة مطلوبهم .

كانوا في الدنيا مبعدين عن معرفته ، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق .

يقول سيد قطب في قوله تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ..** ﴾ [القصص : ٤١ - ٤٢] .

﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ...** ﴾ فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة الهزيمة في الدنيا والهزيمة في الآخرة ، جزاء البغي والاستطالة ، وليست الهزيمة وحدها ، إنما هي اللعنة في الأرض ، والتقبيح في يوم القيامة ، و ﴿ **المقبوحين** ﴾ ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التَّقزُّز والاشمئزاز ، ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله[1] .

وقال تعالى : ﴿ **يَقْدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ [هود : ٩٨-٩٩] .

قاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة .

---

(١) الظلال (٥/٢٦٩٥) .

قال ابن كثير :

وكما أنهم اتبعوه في الدنيا ، وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ، وشربوا من حياض رَدَاه ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر[١] .

يقول سيد قطب :

لما كانوا تبعا لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ويتبعون خطواته الضالَّة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، لما كانوا كذلك ، فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعًا .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ، ووعدًا عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النَّار ، وانتهى فأوردهم النار ، أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم ، ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير ، ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار ؟ ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ ويا بئساه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى إنما يشوي البطون والقلوب ﴿ **وبئس الورد المورود** ﴾ .

﴿ **وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ . هذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رفد بها فرعون قومه !! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلًا ورفدًا مرفودًا ، فهذا رفده لمن اتبعه .. النار ﴿ **وبئس الورد المورود** ﴾ و ﴿ **بئس الرفد المرفود** ﴾[٢] .

○ بلعام بن باعوراء ○

اختلف المفسرون في هذه القصة اختلافًا كثيرًا ، فمنهم من ضعفها

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٧) .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ١٩٢٤) .

كالقاسمي في محاسن التأويل ، ومن ذهب إلى أن الآيات من سورة الأعراف لم تنزل في معين ، وهناك روايات كثيرة أوردها الطبري وابن كثير والألوسي في تفاسيرهم .

قال ابن كثير :

وهذا الذي ذكره ابن إسحق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف[١] .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين ، يقال له : بلعام . وكان يعلم اسم الله الأعظم .

قال محمد بن إسحق ، عن سالم بن أبي النضر أنه حدث : أن موسى عليه السلام لما أنزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ، أتى قوم بلعام إليه ، فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ، ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنا قومك وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله عليهم . قال : ويلكم ! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه ، حتى فتنوه فافتتن ، فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، وهو جبل حُسبان ، فلما سار عليها غير كثير ، ربضت به فنزل عنها فضربها ، حتى إذا أذلقها[٢] قامت فركبها ، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها، أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت : ويحك يا بلعام، أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة تردني عن وجهي هذا؟. أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها بضربها ، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك ، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٣٠٠) .

(٢) الإذلاق : أن يبلغ منه الجَهد .

موسى وبني إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل ، فقال له قومه : أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ! قال : فهذا ما لا أملك ، هذا شيء قد غلب الله عليه ! . قال : واندلع[(١)] لسانه فوقع على صدره . فقال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال : جَمِّلوا النساء وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه ، ومروهن فلا تمنع امرأة من رجل أرادها ، فإنهم إن زنا رجل منهم واحد كُفيتموهم ، فافعلوا .

فلما دخل النساء المعسكر ، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها : كُسبىٰ ابنة صور رأس أمته . برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو زمري بن شلوم رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحق - عليهم السلام - فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى - عليه السلام - فقال : إني أظنك ستقول:هذا حرام عليك ؟ قال : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فوالله ، لا نطيعك في هذا . ثم دخل بها قبته فوقع عليها ، وأرسل الله - عز وجل - الطاعون في بني إسرائيل .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

قال تعالى : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

اختلف المفسرون في معناها ، فأما على سياق ابن إسحق ، عن سالم بن أبي النضر : أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك .

---

(١) خرج من الفم ، واسترعى كلسان الكلب .

وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء والإيمان ، وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته ، فهو يلهث في الحالتين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه[1] .

فلما اندلع لسانه - الذي دعا به على نبي الله موسى - على صدره كان جزاؤه من جنس عمله .

يقول سيد قطب :

آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وتعرى عنها ، ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، استولى عليه الشيطان ، وأمسى مطرودًا من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

إنسان يؤتيه الله آيات ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ، ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخًا ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه ، أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟.

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ، ويتجرد من الغطاء الواقي ، وينحرف عن الهدى ؛ ليتبع الهوى ، ويهبط من الأفق المشرق ، فيلتصق بالطين المعتم ، فيصبح غرضًا للشيطان ، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ، مشهد بائس نكد ، إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقًا بالأرض ملوثًا بالطين ، ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب ، مشهد اللهاث القلق الذي لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا ، والذي لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ، فهو منطلق فيه أبدًا .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٥١١ - ٥١٢) .

مسخ شائه الكيان ، هابط عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان ، مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين ، وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى عِلِّيِّين ، وكان من فطرته الأولى في أحسن تقويم ، فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين .

فخلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا فليس لأوقات الصفاء رجوعُ

لطيفة :

أيها المتعبد خف من الفتن ولا تأمن ، كم أُخذ آمنٌ مِن مَأمن ، إنه لم ينجُ من بحر الفتن الأعظم ، حافظ الاسم الأعظم ، بل عام بلعام ، كان ظاهره لثقا بالتقى ، وباطنه باطية[1] لخمر الهوى .

ما عدا عليه العدو إلا بعد أن تولى عنه الولي ، فلا تظنن أن الشيطان غلب ، وإنما العاصم أعرض ، وإن شككت فاسمع هاتف القدر ، يخبر عن عزة القادر ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ .

فانظر ما عرض لمن سبقت شقاوته في الأزل من الحور بعد الكور ، فبينما تراه وأحواله حالية ، وأعوامه من شوائب الكدر خالية ، وغصون أنسه متدلية ، ورياض قربه مونقة ، قلب الدهر ظهر المجنّ ، وغزاه بجيوش المحن ، وهبت على هاتيك الرياض عاصفات القضاء ، وضاقت عليه فسيحات الفضاء ، وذهب السرور والأنس ، وجعل حصيدًا كأن لم يغن بالأمس ، وأنشد لسان حاله :

قف بالديار فهذه آثارهم تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرًا عن أهلها أو صادقًا أو مشفقا

---

(١) إناء عظيم من الزجاج يتخذ للشراب والجمع بواطِ .

فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقت من تهوى فعزّ الملتقى[١]

وكان جزاء فنحاص - قاتل الزاني - أيضًا من جنس عمله :

قال ابن كثير :

وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى ، وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع ، فجاء الطاعون يجوس في بني إسرائيل ، فأُخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت من حديدٍ كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لِحْيَيْه - وكان بكر العيزار - وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون ..

فانظر إلى جزائه :

فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القِبَة[٢] والذراع واللَّحْي - لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحيه - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم ؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار[٣] .

○ أصحـاب الأخـدود ○

قال تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها

---

(١) روح المعاني للألوسي (١١ / ١٢٣) .

(٢) القبة : بكسر القاف وفتح الباء مخففة : من الكرش .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٥١٢) .

قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السمٰوات والأرض . والله على كل شيء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج : ٤ - ١٠] .

وعن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر ، فبعث إليه غلامًا يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرًا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس . فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال الراهب : أي بنيّ ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هنا لك أجمع إنْ أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟. قال : ربي . قال : ولك رب غيري ؟! قال : ربي وربك الله . فأخذه فلم يزل به حتى دلّ على الغلام ، فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أيْ بنيّ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ؟! . فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى

فدعا بالمنشار ، فوضع في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه . ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك : فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى فدفعه إلي نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به ، فاحملوه في قُرْقُور[1] فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه ، ولا فاقذفوه ، فذهبوا به ، فقال:اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ . قال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي ، حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟. قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهمًا من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام . ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام . ثم رماه فوقع السهم في صُدْغه ، فوضع يده في صُدْغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأُتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ، قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فَخُدَّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها - أو قيل له : اقتحم : ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها

---

(١) السفينة الصغيرة .

الغلام : « يا أمّه ، اصبري فإنك على الحق »(١) .

فكيف كان جزاء الظالمين من جنس عملهم :

القوم الذين أرادوا أن يلقوا بغلام الراهب من فوق الجبل ، رجف بهم الجبل فسقطوا ، والذين أرادوا أن يقذفوا به في البحر غرقوا هم .

قال ابن كثير :

روى ابن أبي حاتم عن الربيع - هو ابن أنس - في قوله تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ سمعنا أنهم كانوا قوما في زمان الفترة ، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابا ، كل حزب بما لديهم فرحون ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحدث حديثهم ، فأرسل إليهم ، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا ، وإنهم أبوا عليه كلهم ، وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت ، فإني قاتلكم . فأبوا عليه ، فخد أخدودًا من نار ، وقال لهم الجبار ووقفهم عليها فقال : اختاروا هذه أو الذي نحن فيه ، فقالوا : هذه أحب إلينا ، وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية ، فقالوا لهم - أي آباؤهم - : لا نار من بعد اليوم ، فوقعوا فيها . فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففي ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والله على كل شيء شهيد** ﴾(٢).

قال تعالى : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ أي حرقوا ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

---

(١) أخرجه مسلم ، وأحمد في مسنده ، والترمذي .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٦) .

قال ابن جرير : ﴿ **إن الذين فتنوا ..** ﴾ قال قتادة : حرّقوهم بالنار ، قوله تعالى : ﴿ **ثم لم يتوبوا** ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

وعن الربيع : ﴿ **فلهم عذاب جهنم** ﴾ في الآخرة ، ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ في الدنيا .

قال الألوسي :

﴿ **فلهم عذاب جهنم** ﴾ بسبب كفرهم ، ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات ، وفي جعل ذلك جزاء للفتنة من الحُسن ما لا يخفى[1].

قال القرطبي :

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود ، فصارت فوق الملك وأصحابه ، أربعين ذراعًا فأحرقتهم[2] .

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾:

قال : ﴿ **عذاب جهنم** ﴾ لكفرهم ، ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ في الدنيا ، لإحراقهم المؤمنين بالنار ، وقد تقدم عن ابن عباس ، وقيل : ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم ، بما أحرقوا المؤمنين[3].

قال القمي النيسابوري في قوله تعالى : ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ .

عذاب جهنم ، وعذاب الحريق مختلفان في الدركة ، الأول لكفرهم، والثاني لأنهم فتنوا أهل الإيمان، وجوز أن يكون الحريق في الدنيا ، لما روي أن النار

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠ / ٩١) .
(٢) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٠٨٠) .
(٣) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٠٨٦) .

انقلبت عليهم فأحرقتهم[1] .

قال ابن كثير :

قال ابن أبي حاتم عن صفوان بن عبد الرحمن بن زهير ، قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تُبّع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين ، حين حرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا أتونًا وألقي فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد ، وفي العراق في أرض بابل . بختنصر الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونًا وألقى فيها الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما بردًا وسلامًا ، وأنقذهما منها ، وألقي الذين بغوا عليه ، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار[2] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول سيد قطب :

﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ . ومضوا في ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا ، ﴿ **ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ وينص على الحريق ، وهو مفهوم من عذاب جهنم ، ولكنه ينطق به وينص عليه ؛ ليكون مقابلًا للحريق في الأخدود ، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث ، ولكن أين حريق من حريق ؟! في شدته أو مدته ؟! وحريق الدنيا يوقدها الخلق ، وحريق الآخرة يوقدها الخالق ، وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ، ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين ، وانتصار لذلك المعنى الإنساني ، ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم[3] .

---

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للعلّامة القمي النيسابوري ، مطبوع على هامش الطبري (٣٦/٩) طبعة دار الريان للتراث .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٤) .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦ / ٣٨٧١) .

○ سبـــأ ○

هذه قصة البطر ، قصة من صدّق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه ونسوا النعم .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبارٍ شكور** ﴾ [سبأ : ١٥ : ١٩] .

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس : أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟. فقال ﷺ : « بل هو رجل وُلد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان »[1] .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها . وقال علماء النسب : سُمي سبأ ؛ لأنه كان أول من سبى من العرب ، وقد كان فيهم التبابعة ، وكان لهم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، وكانت العرب تسمي من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبَّعًا ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس .

جاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تبارك وتعالى ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، فمنهم من أقام ببلاده ، ومنهم من نزح إلى غيرها .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وعبد بن حميد ، وقال ابن كثير في تفسيره (٤٩١/٦): وهذا إسناد حسن .

وكان من أمر السد أن الماء كان يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا ، حتى ارتفع الماء وحكم على حافَّات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة ، والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل[١] ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب ، وهذه الجنان عن اليمين والشمال ، ولذلك الخصب والوفرة والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تُذكّر بالمنعم الوهاب ، وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور** ﴾ وذكروا بالنعمة ، نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر ، والتجاوز عن السيئات ، سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران ، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟!

﴿ **بلدة طيبة** ﴾ ليست بسبخة ، قال ابن زيد : لم يكن يرى في قريتهم بعوضة قط ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ، وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدواب ، فماهم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدواب[٢] .

يقول ابن جرير :

فأعرضت سبأ عن طاعة ربها ، وصدّت عن اتباع ما دعتها إليه رسلها من أنه خالقها .

قال ابن عباس : سيل العرم الشديد ، وكان السبب الذي سبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم – فيما ذكر لي – جرذًا ابتعثه الله على سدهم فثقب فيه ثقبا .

---

(١) هو الذي تغترف فيه الثمار .

(٢) تفسير ابن جرير (١٠ / ٥٣) .

وعن قتادة : لما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جرذا يسمى الخلد ، فثقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم ، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم .

ويقول الضحاك : لما طغوا وبغوا بعث الله عليهم جرذًا فخرق السد ، فأغرقهم الله .

وقال ابن زيد : بعث الله عليه[1] جرذًا ، وسلطه على الذي كان يحبس الماء الذي يسقيها ، فأخرب في أفواه تلك الحجارة ، وكل شيء منها من رصاص وغيره حتى تركها حجارة ، ثم بعث الله سيل العرم ، فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس ، واقتلع تلك الجنتين فذهب بهما .

يقول ابن جرير :

وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك ، والأراك هو الخمط[2] .

قال الضحاك : بدلهم الله بجنان الفواكه والأعناب إذ أصبحت جناتهم خمطًا ، وهو الأراك .

عن ابن عباس قال : الأثل الطرفاء .

قال ابن زيد : أذهب تلك القرى والجنتين ، وأبدلهم الذي أخبرك : ﴿ ذواتي أكل خمط ﴾ ، قال : فالخمط : الأراك .

قال : جعل مكان العنب أراكًا ، والفاكهة أثلًا ، وشيئًا من سدرٍ قليل .

وقال قتادة : بينما شجر القوم خير شجر ، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم

قال تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ .

يقول ابن جرير :

هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم حتى

---

(١) أي السد .

(٢) تفسير الطبري (٨١/١٠) .

هلكت أموالهم ، وخربت جناتهم ؛ جزاءً منَّا على كفرهم بنا ، وتكذيبهم رسلنا[١].

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ .

قال ابن جرير :

معنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله ، فإن قال قائل : أو ما يجزي الله أهل الإيمان به على أعمالهم ، فلم يَخص أهل الكفر بالجزاء ؟. فيقال : إن المجازاة في هذا الموضع المكافأة ، والله تعالى ذكر وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم ، وأن يجعل لهم بالواحدة من أعمالهم الصالحة عشر أمثالها إلى ما لا نهاية له من التضعيف، ووعد المسيىء من عباده أن يجعل بالواحدة من سيئاته مثلها مكافأة له على جرمه ، والمكافأة لأهل الكبائر الكفر ، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل ، فلذلك قال – جل ثناؤه – في هذا الموضع : ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ كأنه قال جل ثناؤه : لا يُجازَى لا يكافأ على عمله إلا الكفور ، إذا كانت المكافأة مثل المكافأ عليه ، والله لا يغفر له من ذنوبه شيئًا ، ولا يمحص شيئًا منها في الدنيا ، وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه .

قال مجاهد : نجَازي نعاقب[٢] .

قال القرطبي :

وأولى ما قيل في هذه الآية ، وأجل ما روي فيها أن الحسن قال : مثلًا بمثل[٣] .

قال تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٨٢) .
(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٠ / ٥٧) .
(٣) تفسير القرطبي (٨ / ٥٧٧٠) .

صبار شكور ﴾ [سبأ : ١٨ - ١٩] .

يقول سيد قطب :

كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم ، ضيق الله عليهم في الرزق ، وبدّلهم من الرفاهة والنعماء خشونة وشدة ، وتبدلت تلك الجنان الفيح ، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشبة ، ولكن لم يمزقهم ولم يفرقهم ، وكان العمران مايزال متصلًا بينهم وبين القرى المباركة مكة في الجزيرة ، وبيت المقدس في الشام ، وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرضاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل .

قال ابن كثير :

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعيم ، والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرضية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ويقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سفرهم .

قال تعالى : ﴿ **القرى التي باركنا فيها** ﴾ ، قال مجاهد والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد وغيرهم : قرى الشام .

قال تعالى : ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ . بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، ويقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ أي جعلناهم بحسب ما يحتاج إليه المسافر .

﴿ **سيروا فيها ليالي وأيّامًا آمنين** ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا .

قال قتادة : ﴿ **سيروا فيها ليالي وأيّامًا آمنين** ﴾ لا يخافون ظلمًا ولا جوعًا ، وإنما يغدون فيَقِيلون ويروحون فيبيتون في قرية أهل جنة ونهر ، وكان

الرجل المسافر لا يحمل معه زادًا ولا سقاء[1].

وقال أيضًا :

كانوا يسيرون غير خائفين ، ولا جياع ولا ظماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان ، لا يحرك بعضهم بعضًا ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه[2].

وقال ابن زيد : إن كانت المرأة لتخرج معها مغزلها ومكتلها على رأسها ، تروح من قرية ، وتغدوها وتبيت في قرية ، لا تحمل زادًا ولا ماء لما بينها وبين الشام .

قال القمي النيسابوري : والمقصود من ذكر الليالي والأيام تقرير كمال الأمن ولذلك قُدمت الليالي فإنها مظنة الآفات ، ويمكن تقرير الأمن بوجه آخر وهو أن يقال : سيروا فيها ، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أيامًا وليالي[3].

قال تعالى : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ .

قال ابن جرير : قالوا يا ربنا باعد بين أسفارنا ، فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز ، لنركب فيها الرواحل ، ونتزود معنا فيها الأزواد ، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله وإحسانه إليهم ، وجهلهم بمقدار العافية ، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة ، كما عجل للقائلين : ﴿ **إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ [الأنفال : ٣٢] أعطاهم ما رغبوا إليه ، وطلبوا من المسألة .

قال ابن عباس : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم** ﴾ فإنهم بطروا عيشهم ، وقالوا : لو كان جنى جناتنا أبعد مما هو كان أجدر أن نشتهيه ، فمزقوا بين الشام وسبأ ، وبُدلوا بجنتيهم ﴿**جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل**﴾.

وقال قتادة : بطر القوم نعمة الله ، وغمطوا كرامة الله ، قال الله : ﴿ **وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث**﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٥٨/١٠). (٢) تفسير القرطبي (٥٣٧٢/٩).

(٣) القمي النيسابوري (١٠ / ٥٢) .

وقال ابن زيد : ﴿**باعد بين أسفارنا**﴾ حتى نبيت في الفلوات والصحاري[١].

قال ابن كثير :

بطروا هذه النعمة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد ، وأحبوا مفاوز ومهامه ، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور[٢] والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد من مَنٍّ وسلوى ، قال تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها** ﴾ [القصص : ٥٨] وقال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢][٣] .

يقول سيد قطب :

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى التي لا تقع إلا مراتٍ متباعدة على مدار العام ، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل التي لا تُشبع لذة الرحلات ، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ﴿ **وظلموا أنفسهم** ﴾ واستجيبت دعوتهم ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر[٤] . قال تعالى : ﴿ **فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق** ﴾ .

قال ابن كثير :

جعلناهم حديثا للناس ، وسمرًا يتحدثون به عن خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهني ، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : أيدي سبأ ، وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٥٩/١٠).
(٢) الشمس .
(٣) تفسير ابن كثير (٤٢٧/٦) .
(٤) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٠١ .
(٥) تفسير ابن كثير (٤٩٧/٧) .

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم :

يقول سيد قطب :

عادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه ، بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة ، أصبحوا أثرًا بعد عين ، وحديثًا يُروى ، وقصة تحكى .

ويقول :

وهناك فهم آخر فقد يكون المقصود بقوله : ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ أي قرى غالبة ذات سلطان ، بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة ، كثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ، ومواضع الماء ، فلم يصبروا على الابتلاء وقالوا : ﴿ **ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ أي قلل من أسفارنا ، فقد تعبنا ، ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم ، ففعل الله بهم ما فعل ، وهو وجه رأيته في الآية والله أعلم بمراده[1] .

قال ابن كثير :

عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[2] .

يقول الأعشى :

وفي ذاك للمُوتَسي أسوة ... ومأربُ عفّى عليها العَرِمْ[3]

رخامٌ[4] بنته لهمْ حميرٌ ... إذا جاء مواره[5] لم يرمْ

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٠٢) . (٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٩٩) .

(٣) العرم : المسَنَّاة التي تحبس الماء . وقال سيد قطب: العرم : الحجارة .

(٤) حجر أبيض .

(٥) الشديد المور - مار يمور مورًا أي جعل يذهب ويجيء ، وعند ابن جرير : إذا جاء ماؤه لم يرم .

فأروى الزروع وأعتابها على سعةٍ ماؤهمْ إذ قسمْ
فصاروا أياديَ ما يقدرو ن منه على شرب طفلٍ فُطمْ

والجزاء من جنس العمل .

يقول القشيري في اللطائف :

أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضيعوا الشكر ، فبدلوا وبُدّل بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن ابتغى عوضًا لسلمى فلم يجد

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سُقُوا إلا مما ثَبِطوا[(١)] ، أو ما وقعوا إلا في الوهدة التي حفروا ، وما قُتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا[(٢)] .

كذلك من الناس من يكون في رغدٍ من المال ، واتصال من التوفيق ، وطرب من القلب ، ومساعدة من الوقت فيرتكب زلة أو يسيء أدبًا أو يتبع شهوة ، ولا يعرف قدر ما هو به ، فيتغير عليه الحال ، فلا وقت ولا حال ، ولا طرب ولا وصال .

فتذكر .. ما الذي سبى قوم سبأ ؟ إن للنعم أجنحة فمن قصها بمقراض الشكر جنحت إليه ، ومن أهمل ريشها حتى نَبَتَ نَبَتْ من بين يديه ، أخصبت ديار قوم سبأ فطابت ، فما يُخرِج حيهم حية ، ولا يقال : هذا عقير عقرب ، ولا يُرى في بلادهم بعوضة ، ولا لأذلهم بباب ذباب ، فلما تمت النعمة ، قام متقاضي الشكر يقول : ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا** ﴾ ، فقابلوا الرسل مقابلة معاند ، فرفعت قصة الشكوى في مسطور ﴿ **فأعرضوا** ﴾ ، فكان مما أرسلنا عليهم أن أرسلنا ﴿ **سيل العرم** ﴾ ، بعث الله عز وجل عليهم جُرذًا أجرد ، نقب سِكْرَهم[(٣)] ، وهم في سُكرهم فأغرق فيما جنى به عَلِيّ جنابهم ، حتى أغرق جناتهم ، فخرّت الأشجار ، بعد أن فُجرت الأنهار ، وعثت

---

(١) حَمُقَ في عمله .

(٢) اللطائف (٥/١٨٠ - ١٨١) .

(٣) السدّ .

كف الفساد في ديارهم ودام البكاء ، وعلا العويل ، وخَلَف غرابُ البَيْن الوُرقَ على الوَرِق ، وبئس البديل ، ﴿ **وبدلناهم بجنتيهمْ جنتين ذواتي أكلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل** ﴾ .

○ عمرو بن لحي الخزاعي ○

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة »[١] .

وفي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه ، مرفوعًا : « وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام »[٢] .

لما وليت خزاعة البيت ، وصار أمره إليهم ، كانوا قوم سوء في ولايتهم .

يقول الحافظ ابن كثير :

وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي – لعنه الله – فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال جزيل جدًا ، يقال : إنه ملك عشرين ألف بعير ، وممن ذكر الأزرقي والسهيلي : إنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ، ويَلتُّ لهم السويق ، قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع ؛ لشرفه فيهم ، ومحلته عندهم ، وكرمه عليهم[٣] .

قال ابن هشام :

حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد

(١) أخرجه ابن أبي عاصم ، والطبراني في الكبير والأوسط ، وحسنه الألباني في الصحيحة ١٦٧٧

(٢) أخرجه الحاكم وابن أبي عاصم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني .

(٣) البداية والنهاية (٢ / ١٧٤ – ١٧٧) .

عملاق ، ويقال : ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنمًا، أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنمًا يقال : له هبل ، فقدم به مكّة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[١].

قال ابن إسحق :

كانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك .

وقد ذكر السهيلي وغيره . أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي ، وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ، ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك ، ولم يقف شيطانه عند هذا الحد ، وابتدع - لعنه الله - لهم أشياء في الدين غيَّر بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك .

وانظر أيضًا إلى ما ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة ، التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي - قبحه الله - أنها مصلحة ورحمة بالدوابِّ والبهائم ، فهو أول من سيَّب السَّوائب ، وهو كاذب مفترٍ في ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام ، بعد ما تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير ، وهو عبادة الأوثان ، وقد قال تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بَحِيرَةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

فيا له من قزم دعا رعاعًا فأجابوه !

فهل كان جزاؤه من جنس عمله ؟

قال ﷺ : « رأيت عمرو بن عامرٍ الخزاعي يجر قُصْبَهُ[٢] في النار ،

---

(١) الروض الأنف ، للسهيلي (١/ ٣٥٠) .

(٢) القُصْب : بضم القاف وسكون الصاد أمعاءه . قال الزمخشري : القصب واحد الأقصاب ، وهي الأمعاء ومنه القصّاب ؛ لأنه يعالجها . وقال ابن الأثير : اسم للأمعاء كلها ، وقيل : ما كان أسفل البطن من الأمعاء (فيض القدير ٤ / ٩) .

وكان أول من سَيَّب السوائبَ ، وبحرَ البَحيرة »[١] .

قال المناوي :

لكونه استخرج من باطنه بدعة جرّ بها الجريرة إلى قومه[٢] ، فكذا يجر أمعاءه في النار ، والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « رأيت عمرو بن لُحَي بن قَمْعَة بن خِنْدِف ، أخا بني كعب ، وهو يجر قصبه في النار »[٣] .

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول من سيّب السوائب ، وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيته في النار يجُرُّ أمعاءه فيها »[٤].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا ، ورأيت عمرًا يجر قصبه ، وهو أول من سيّب السوائب »[٥] .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لُحَيٍّ بن قمعة بن خندف يجر قُصبه في النار ، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » . فقال أكثم : عسى أن يضرّني شبهه يا رسول الله ؟ قال : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيَّب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي »[٦] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده ، وابن أبي عاصم في الأوائل عن أبي هريرة .

(٢) فيض القدير (٤ / ٩) .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٢٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٦٧٧ .

(٥) تفرد به البخاري .

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل ، وقال الألباني : إسناده حسن ، السلسلة الصحيحة رقم ١٦٧٦ .

○ أبرهة صاحب الفيل ○

قال ابن جرير :

عن ابن إسحق أن أبرهة- الأشرم - بني كنيسة بصنعاء ، وكان نصرانيا ، وسماها : القليس[1] .

وانظر إلى أبرهة اللعين - صاحب الفيل - والصاحب يكون من جنس القوم . فكأن الله أشار إلى أنه من جنس البهائم بل أضلّ . لما ابتنى كنيسته القليس بصنعاء وأراد حج الناس إليها ، وأراد بذلك صرف الناس عن الحج إلى البيت .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

فصرف الله عنها الناس ، وأوقد الحريق فيها كما قال القمي النيسابوري .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الشنقيطي في أضواء البيان :

وكذلك جيش أبرهة ، لما جاء مدلا بعدده وعدته ، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات ، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿ **فأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾[2]. [الفيل : ٣-٥] .

يقول ابن كثير :

يقول ابن إسحق : أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا يسألون عن نفيل بن حبيب ،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٢ / ١٩٦ - ١٩٧) .

(٢) أضواء البيان (٨ /٤٤٢) .

ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، وفي ذلك يقول نفيل :

حمدت الله إذ أبصرت طيرًا وخفت حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفير كأن عليّ للحبشان دَيْنا

قال ابن إسحٰق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدّة تمثّ قيحًا ودمًا ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون[1] .

فلما أراد أبرهة هدم البيت حجرًا حجرًا ، كذلك سقط أنملة أنملة .

لما أراد تصديع البيت فكذا انصدع صدره عن قلبه .

لما زها وعتا بنفسه ، وخرج بقوته يريد مكة ، فالآن يعود إلى بلاده مثل فرخ الطائر .

والجزاء من جنس العمل .

قال تعالى : ﴿ **وأرسل عليهم طيرًا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ [الفيل : ٣ - ٥] .

أبابيل : أي متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواحٍ شتى ، قال ابن عباس : يتبع بعضها بعضا . وقال عبد الله : فرق . وقال ابن عباس : كانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

والسجيل : هو الطين في حجارة ، كما قال ابن عباس .

فانظر رحمك الله .. لما تتابعوا على البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ، يتبع بعضها بعضًا .

ولما أرادوا نقض البيت ، وهدْمه حجَرًا حجَرًا ؛ عذَّبهم الله بالحجارة والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٠-٥٥١) بتصرف . طبع دار التراث

لا هم إنَّ العبد يمـ ـنع رَحْله فامنع رحالك
لا يغلبــن صليبهــمْ ومحالهم غدْوًا محالك .

قال ابن كثير :

قال ابن إسحٰق : بعثت ثقيف أبا رغال مع أبرهة ، ليدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس ، كقول جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكمُ لقبر أبي رغال

فلما أعان القوم كدليل لهدم الكعبة ، وجعلها أنقاضا وحجارة ، فكذا يرجم قبره بالحجارة .

والجزاء من جنس العمل .

أما قائد الفيل وسائسه : روى ابن إسحٰق عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . تحركت أقدامهما بالفيل ، فأصبحا يقادان في شوارع مكة ، وأقعدهما الله .

والجزاء من جنس العمل .

يقول سيد قطب :

ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعزَّ بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا - ويهلك بحيوان صغير ، لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر ، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر[1].

فلما شرفت الكعبة بإضافة ﴿ **وطهر بيتي** ﴾ [الحج : ٢٦] ، قصدها فوج الفيل ، فَفِيلَ[2] مرادهم ، لما باتوا على ما بيتوا ، أقبل الطير الذي رمى كالغمام ، فكانت قطراته للحصاد لا للبذر ، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم ؛ ليكون معجزًا لظهور بني هاشم ، فأمسوا في بيدر الدياس ﴿ **كعصف مأكول** ﴾[3] .

---

(١) الظلال (٦/٣٩٧٦). (٢) خاب. (٣) المدهش لابن الجوزي ٧٥ .

○ كفار قريش ○

كفار قريش الذين صدوا عن سبيل الله ، وآذوا الرسول ﷺ ، وجرّعوا الصحابة صنوف العذاب ، فلننظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قد قالوا عن رسول الله ﷺ أنه الأبتر وكذبوا ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

يقول سيد قطب :

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ، ولا يمكن أن يكون صاحبها أبتر ، كيف وهي موصولة بالحي الباقي ...؟! إنما يبتر الكفر والباطل والشر ، ويبتر أهله مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور ، وصدق الله العظيم ، وكذب الكائدون الماكرون[١] .

وكم رأت دار الندوة من انتفاش الباطل ورجسه ودنسه ، وهي دار عريقة ذات تاريخ ، وفيها اجتمع سادة قريش ليأتمروا برسول الله ﷺ ، وتمر الأيام وتصير هذه الدار إلى حكيم بن حزام الذي أراد أن يتخلص منها ، وكأنه يريد أن يسدل ستارًا من النسيان على ذلك الماضي البغيض ، فباعها بمائة ألف درهم ، فقال له قائل من فتيان قريش : لقد بعت مَكْرُمة قريش ياعم : فقال حكيم : هيهات يا بني ، ذهبت المكارم كلها ؛ ولم يبق إلا التقوى ، وإني ما بعتها إلا لأشتري بثمنها بيتا في الجنة ، وإني أشهدكم أنني جعلت ثمنها في سبيل الله عز وجل »[٢] .

فالباطل ينتفخ وينتفخ وينفش ، يموه على العين ، ولكنه هش سريع العطب ، كالزبد يطفو على الماء ، ولكنه يذهب جفاءً ويبقى الماء ، أما الحق فله العقبى وله البقاء ولا يزول .

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٨٩) .

(٢) صورة من حياة الصحابة (٥/٧٦ - ٧٧) .

○ أبو جهل فرعون هذه الأمة ○

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

قبل بدر لما نجا أبو سفيان بعير قريش ، ولما ترك بدرًا بيسار ، نزلت قريش بالجحفة .

يقول ابن إسحاق :

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام ، والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكان بدر موسما من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثَلاثًا ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا ، فامضوا .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، وصاروا حديث الناس في الذل والهوان .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا أجهل قال حين التقى القوم : اللهم ، أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لا نعرف ، فأحِنِهِ[١] الغداة ، فكان هو المستفتح[٢] .

قال تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين** ﴾ [الأنفال : ١٩] .

---

(١) أي اجعل حينه غدًا .

(٢) رواه أحمد وابن إسحق ، والنسائي ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، انظر البداية والنهاية (٣ / ٢٨٢) .

وقال الآمدي عن مطرف في قوله تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ . قال : قال أبو جهل : اللهم أعن أعز الفئتين ، وأكرم القبيلتين ، وأكثر الفريقين ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا ..** ﴾ الآية .

وقال الطبراني عن رفاعة بن رافع قال : لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر ، أشفق أن يُخْلص إليه ، فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز في صدر الحارث ، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ، ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي . وخاف أن يخلص القتل إليه ، وأقبل أبو جهل فقال : يا معشر الناس ، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد ، فإن عجلوا فواللات والعزى ، لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ، فلا ألفين رجلًا منكم قتل رجلًا ، ولكن خذوهم أخذًا ، حتى تُعَرِّفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ، ورغبتهم عن اللات والعزى ، ثم قال أبو جهل متمثلًا :

ما تنقم الحرب الشموس منِّي
باذلَ عامين حديث سنٍّ
لمثل هذا ولدتني أمي

فانظر كيف كان جزاء هذا المنتفخ من جنس عمله :

روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لفي الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن لمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل . فقلت : يا ابن أخي ، ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله ، أو أموت دونه . وقال لي الآخر سرًا من صاحبه مثله . قال : فما سرني أنني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه وهما ابنا عفراء .

وفي الصحيحين أيضًا : من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ينظر ماذا صنع أبو جهل ؟ » . قال ابن مسعود : أنا يا رسول الله . فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء ، حتى برد . قال : فأخذ بلحيته ، قال : فقلت : أنت أبو جهل[١]؟ فقال : وهل فوق رجل قتلتموه ، أو قال : قتله قومه .

وعند البخاري : عن ابن مسعود : أنه أتى أبا جهل فقال : هل أخزاك الله ؟ . فقال هل أعمد[٢] من رجل قتلتموه .

وقال الأعمش عن ابن إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع وعليه بيضة ، ومعه سيف جيد ، ومعي سيف رديء فجعلت أنقف[٣] رأسه بسيفي ، وأذكر نقفًا كان ينقف رأسي بمكة ، حتى ضعفت يده ، فأخذت سيفه ، فرفع رأسه فقال : على من كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ ألست رويعينا بمكة ؟. قال : فقتلته ثم أتيت النبي ﷺ فقلت : قتلت أبا جهل . فقال : « آلله الذي لا إله إلا هو ؟ » فاستحلفني ثلاث مرات ، ثم قام معي إليهم فدعا عليهم[٤] .

فكان جزاؤه من جنس قوله ، بل ومن جنس عمله ، فنقف ابن مسعود بالسيف في رأسه مثلما فعل به في مكة .

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٤٢) : والتقدير : أنت المقتول يا أبا جهل ؟ وخاطبه بذلك مقرِّعًا له ومستشفيًا منه ؛ لأنه كان يؤذيه بمكة أشد الأذى .

(٢) كناية عن الهلاك ، وعمد أي هلك ، وقيل : معني أعمد : أعجب أو أغضب ، وقيل : معناه هل زاد على سيد قتله قومه : الفتح (٧ / ٣٤٣) .

(٣) أضرب .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٨٨ - ٢٨٩) .

○ أبو لهب وامرأته حمالة الحطب ○

وأبو لهب هذا الذي أفرد الله ذكره من كفار قريش ، هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي أبا لهب ؛ لإشراق وجهه ، ولتلهب وجنتيه ، وكأن كنيته من جنس عمله ومآله إلى ذات اللهب ، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها ، وامرأته أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان .

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له ، والازدراء به . والتنقص له ولدينه .

وانظر إلى نموذج من نماذج كيد أبي لهب لدعوة الرسول ﷺ ، التي عاداها من اليوم الأول للدعوة .

روى الإمام أحمد ، عن ربيعة بن عبّاد من بني الديل – وكان جاهليًا ، فأسلم – قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية، في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يأيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وروى محمد بن إسحٰق عن ربيعة بن عباد الديلي قال : إني لمع أبي غلام شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضيء ذو جُمّة ، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصدقوني وتمنعوني ، حتى أنفذ عن الله ما بعثني به » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر ، مِنْ خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيس ، إلى ما جاء به من البدعة والضلة ، فلا تسمعوا له وتتبعوه .

فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب(١) .

قال تعالى : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ [المسد : ١ - ٥] .

روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل ، فنادى : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾(٢) .

وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ . فأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾(٣) .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

من أول يوم ينفرد هذا الكافر بالكيد للرسول ﷺ وتتبع خطوه ، والرد على مقالته ، فأفرد الله ذكره ، وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش .

ولما قال للرسول ﷺ : تبًّا لك وقام ينفض يديه ، فتنزل السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته ، وتولى الله سبحانه عن رسول الله ﷺ أمر المعركة .

قال : تبا لك ، فكان الجزاء : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ .. دعاءٌ بدعاء ، ولفظٌ بلفظ .

---

(١) رواه أحمد والطبراني .

(٢) رواه البخاري تفسير سورة : ﴿ تبت يدا أبي لهب .. ﴾ .

(٣) البخاري كتاب الجنائز باب ذكر شرار الموتى ، وتفسير سورتي الشعراء وسبأ .

نفض يديه ، فجاء ذكر اليدين : ﴿ **تبت يدا** ﴾ .. واحدة بواحدة .. يداك أو كتا وفوك نفخ أبا لهب .

سائر اليوم : سائر الدهر وأنت بعد في دار الدنيا ﴿ **وتب** ﴾ .

ولم يقيض الله له ولا لامرأته أن يؤمنا ، ولا لواحد منهما ولا ظاهرًا ولا باطنًا ، ولا سرًّا ولا معلنًا ؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة[١] .

﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ تباب وهلاك وبوار وقطع .. في آية قصيرة واحدة ، تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهي المعركة ، ويسدل الستار !

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه ؛ تلبية لدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشًا ، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم ، وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدًا ﷺ : وكان قد خطب بنتي الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم ، لولديه قبل بعثة النبي ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما ، حتى يثقل كاهل محمد بهما !

﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ **وما كسب** ﴾ يعني ولده ، وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله . لما دعا الرسول ﷺ قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقا ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي . قال الله – عز وجل – لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

عن عطاء : نزلت في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن الرسول ﷺ ، فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٧) .

والجزاء من جنس العمل.

قال القاسمي :

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده - لعنه الله - ثلاثة : معتب ، وعتبة ، وهما أسلما ، وعُتيبة - مصغرا - وهذا هو الذي دعا عليه النبي ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ، وردّ ابنته وطلقها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» . وفيه يقول حسان - رضي الله عنه -:

من يرجع العام إلى أهله فما أكيلُ السَّبع بالراجع[1]

قال ابن كثير :

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن إسحٰق عن هبار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلق إلى محمد ولأوذينه في ربه - سبحانه - فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، هو يكفر بالذي دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي ﷺ : « اللهم ، ابعث إليه كلبًا من كلابك » . ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ما قلت له ؟. فذكر ما قال له ، قال : فما قال لك ؟. قال : قال اللهم ، سلط عليه كلبًا من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه[2].

وفي رواية عروة بن الزبير : أن عتبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمدًا فلأوذينه . فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ، سلط عليه كلبًا من كلابك » وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره[3].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦٢٩٢/١٧). (٢) تفسير ابن كثير (٤٢١/٨) سورة النجم.

(٣) القرطبي (٩ / ٦٢٥٣) .

فسرنا حتى نزلنا الشراة[١] ، وهي مأسدة[٢] ، فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد ، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم ، فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، والله ما آمنها عليه ، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشمّ وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد ؛ تقبض ، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة[٣]، ففضح[٤] رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد .

فانظر أخي يرحمك الله .. لما تفل في وجه رسول الله - ﷺ - أتى الأسد ، فشم وجهه ، وفضح رأسه ، لم يأكله من يديه أو رجليه ، وإنما وجه بوجه ..

بصق في وجه نبي ... وفضح في رأس شقي ، ومعذرة لرسول الله ﷺ .

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فابن أبي لهب لا يناسبه إلا كلب[٥] .

وهل أغنى عنه ولده يوم موته ..؟!

فهل الجزاء إلا من جنس العمل !؟

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : رماه الله بالعدسة فقتلته ، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا ، ما دفناه حتى أنتن ، وكانت قريش تتقي هذه العدسة ، كما

---

(١) الشراة : صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ . وفي اللسان : موضع تنسب إليه الأسد . يقال للشجعان : ما هم إلا أسود الشرى ، والشرى طريق في سلمى كثير الأسد .

(٢) الأرض كثيرة الأسود .

(٣) أي ضربه ضربة .   (٤) أي شدخه .

(٥) قال القاسمي في محاسن التأويل (١٧ / ٦٢٩٢) ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب ، ولما أضيف إلى الله كأنه أعظم أفراده .

تتقي الطاعون ، حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكما ، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه ؟ فقالا : إنا نخشى عدوة هذه القرحة . فقال : انطلقا فأنا أعينكما عليه ، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ، ثم احتملوه إلى أعلى مكة ، فأسندوه إلى جدارٍ ، ثم رخموا عليه بالحجارة .

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا ، إلا تسترت بثوبها حتى تجوز .

﴿ سيصلى نارًا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب ﴾ .

من للأحول غير أم قبيح ، أم جميل العوراء .

قال ابن العربي : العوراء أم قبيح وكانت عوراء ، من لها غير أبي النار ، أبي لهب ؟! حقق الله نسبه ، لقد صرفهم الله على أن يقولوا : أبو النور .. وأبو الضياء ، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب ، الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم وهو النار ، ثم حقق ذلك بأن يجعلها مَقَرّه .

قال ابن كثير عن أم جميل :

كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم ، ولهذا قال : **﴿ حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾** يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهي مهيأة لذلك ، مستعدة له[1] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ حمالة الحطب ﴾ عن مجاهد وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثوري ، والسدي : كانت تمشي بالنميمة .

وعن ابن عباس ، وعطية الجدلي ، والضحاك ، وابن زيد ، كانت تضع

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٥) .

الشوك في طريق رسول الله ﷺ ، واختاره ابن جرير .

قال الإمام ابن جرير :

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي هو قول من قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ ؛ لأن ذلك أظهر .

قال الربيع : فكان النبي ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير .

ومثلما حملت الشوك والعضاة تطرحه في طريق رسول الله ﷺ ، فكذا تحمل الحطب تطرحه على زوجها في النار جزاءً وفاقًا ، قال قتادة وغيره : كانت تُعيّر رسول الله ﷺ بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب لشدة بخلها ، فُعيّرت بالبخل[١] .

بل كان موتها بجنس عملها .

قال مرة الهَمْداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة[٢] من الحسك[٣] فتطرحها في طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حُزْمة أَعْيَت ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها[٤] خنقها الله بحبلها .

قال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، دليله قوله تعالى : ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ [الأنعام : ٣١] . ولا يظلم ربك أحدًا . والجزاء من جنس العمل .

﴿ **في جيدها[٥] حبلٌ من مسد** ﴾ .

قال سعيد بن المسيِّب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها في

---

(١) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٣٣٠) .

(٢) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(٣) الحسك : نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم ، وهو السعدان .

(٤) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٣٣٠) .

(٥) الجيد : العنق .

عداوة محمد ، فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار .

وعن الثوري : هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا . والجزاء من جنس العمل[١] .

يقول سيد قطب في الظلال :

أبو لهب ﴿ **سيصلى نارًا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب** ﴾ ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد ، تناسق في اللفظ ، وتناسق في الصورة ، فجهنم هي نار ذات لهب ، يصلاها أبو لهب ، وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه ، والحطب مما يوقد به اللهب ، وهي تحزم الحطب بحبل ، فعذابها في النار ذات اللهب ، أن تُغّل بحبل من مسد ؛ ليتم الجزاء من جنس العمل[٢] .

وانظر يأخي ، مثلما أراد أن ينغصا عيش رسول الله ﷺ بتطليق ابنتيه وتتبعه في المجالس بتكذيبه ، مثلما أثارا حربًا شعواء على النبي ﷺ ، وعلى الدعوة لا هوادة فيها ولا هدنة ، انظر إلى وقع السورة في نفس أم جميل ، التي ذعرت لها وجُنّ جنونها ، وحسبت أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر ، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة ، وما تحمله من تهديد ومذمة ، وتصوير رزي لأم جميل خاصة ، تصوير يثير السخرية ، من امرأة معجبة بنفسها ، مُدِلَّةٍ بحسبها ونسبها ، ثم ترتسم لها هذه الصورة ﴿ **حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب .

عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة وفي يدها فهر[٣] ، وهي تقول :

مذممًا أبينا
ودينه قلينا
وأمره عصينا

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٦) . (٢) الظلال (٦ / ٤٠٠٠) .

(٣) أي بمقدار ملء الكف من الحجارة .

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت ، وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن تراني » وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يأبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني ؟. قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت ، وهي تقول : قد علمت قريش إني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه ، أو غيره : فعثرت أم جميل مِرْطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أُكلّم ، وثقاف[١] فما أُعلّم ، وكلنا من بني العمِّ ، وقريش بعد أعلم[٢] .

وروى الحافظ عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ وجاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر ، فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيحال بيني وبينها ، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، فقالت : يأبا بكر هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما نطق بالشعر ولا يتفوه به . فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر – رضي الله عنه – : ما رأتك ؟. قال : لا مازال ملك يسترني حتى ولت »[٣].

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرًا ، وكان الهجاء لا يكون إلا شعرًا مما نفاه أبو بكر ، وهو صادق ، ولكن الصورة المزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها قد سجلت في الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضًا ، تنطق بغضب الله وحربه أبي لهب وامرأته ،

---

(١) أي ذات فطنة ومعرفة .

(٢) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٦ – ٥٣٧) .

(٣) ابن كثير (٨ / ٥٣٧) .

جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية ، جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا ، والنار في الآخرة جزاءً وفاقًا ، والذل الذي يشير إليه الحبل ، في الدنيا والآخرة جميعًا[١] .

○ عقبة بن أبي معيط لعنه الله ○

هذا الشقي الذي آذى رسول الله ﷺ ، وانفرد بما لم يفعله أحد ، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ ، فقطعت عنقه جزاء وفاقا .

قال ابن إسحٰق في أسرى بدر ، وعن عقبة بن أبي معيط وكيف قتل صبرًا :

قال عقبة ، حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبية يا محمد ؟. قال : « النار » . وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وكذا قال موسى ابن عقبة في مغازيه .

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت ، قال : يا معشر قريش علام أقتل مِنْ بين مَنْ هنا ؟ قال على عداوتك لله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال : لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد ، من بين قريش ؟ قال : « نعم ، أتدرون ما صنع هذا بي ، جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقي وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عينيّ ستندران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة ، فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي .

قال ابن هشام : بل قتل عقبة علي بن أبي طالب ، فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم[٢] .

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ .

---

(١) الظلال (٦/٤٠٠١) . (٢) البداية والنهاية (٣ / ٣٠٦) .

○ أُبَيّ بن خلف ○

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه – يشير إلى راعيته – اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله – ﷺ – في سبيل الله[(١)] .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله النبي في سبيل الله ، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه نبي الله ﷺ»[(٢)].

قال ابن إسحٰق : « كان أُبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة ، فيقول : يا محمد ، إن عندي العَوذَ ، فرسًا أعلفه في كل يوم فرقا[(٣)] من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : « بل أنا أقتلك إن شاء الله »[(٤)] .

قال ابن كثير :

عن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف أخو بني جمع ، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » . فلما كان يوم أحد أقبل أُبي في الحديد مقنعا ، وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله ، فاستقبله مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها بالحربة ، فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه ، وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ، إنما هو خدش ؟. فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « أنا أقتل أبيا » . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون .

---

(١) رواه البخاري ومسلم . (٢) رواه البخاري .

(٣) بفتح الراء وإسكانها : مكيال يسع تسعة عشر منا ، وقيل : اثنا عشر منا .

(٤) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة : أحد ١٦٢ .

فمات إلى النار . ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[١] [الملك : ١١] .

وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب نحوه ، وقال ابن إسحق : لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أُبي بن خلف ، وهو يقول : لا نجوتُ إن نجوتَ . فقال القوم : يا رسول الله ، يعطف عليه رجل منا ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوه » . فلما دنا منه ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصُمّة فقال بعض القوم - كما ذكر لي - فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض انتفاضة تطايرنا عنه ، تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفضه ، ثم استقبله رسول الله ﷺ ، فطعنه في عنقه تدأدأ منها[٢] مرارًا[٣] .

لما رجع إلى قومه ، وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشًا غير كبير ، قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله ما بك من بأس . قال : إنه قد كان قال بمكة : أنا أقتلك فوالله ، لو بصق عليّ لقتلني ، فكان هذا الشقي هو الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ بيده الكريمة[٤] .

فكان جزاؤه من جنس قوله للرسول ﷺ بمكة .

قال حسان :

لقد ورث الضلالة عن أبيه أُبيٌّ يوم بارزه الرسولُ
أتيت إليه تحمل رِمَّ عظمٍ وتُوعِدُهُ وأنتَ به جهولُ

وقال أيضًا :

ألا من مُبْلغٍ عني أُبيّا فقد أُلقيت في سحق السعيرِ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٣٣ - ٣٤) .

(٢) عدا أشد العدو .

(٣) البداية والنهاية (٤ / ٣٣ - ٣٤) .

(٤) سلسلة معارك الإسلام : أحد ١٦٣ .

تُمَنِّي بالضلالة مِنْ بعيدٍ وتقسمُ إن قدرت مع النذورِ
تُمنّيك الأمانيَ من بعيد وقول الكفر يرجع في غرورِ
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظٍ كريم البيت ليس بذي فجورِ
له فضل على الأحياء طُرّاً إذا نابت مُلِمَّاتُ الأمورِ

○ عبد الله بن قمئة أقمأه الله ○

عن ابن عباس قال : اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر :

ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شُج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها ، ووهي منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[1] .

وعند ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري : أن عبد الله بن قمئة جرحه – أي الرسول ﷺ في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَرِ في وجنته ﷺ .

فماذا كان جزاء هذا الشقي ؟!

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر : إن الذي رمى رسول الله ﷺ بأحد ، فجرحه في وجهه ، قال : خذها مني وأنا ابن قمئة ، فقال : « أقمأك الله » .. قال فانصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع .

وفي الطبراني ، من حديث أبي أمامه قال : رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد ، فشج وجهه وكسر رباعيته ، فقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يمسح الدم عن وجهه : « ما لك ، أقماك الله » .

---

(١) فتح الباري (٧ / ٤٣١) .

فسلط الله عليه تَيْس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعةً .

وكان جزاؤه من جنس عمله .

فانظر رحمك الله .. لم يرسل الله عز وجل إلى ابن قمئة مَلَكًا ؛ لينتقم لنبيه ﷺ ، وإنما سلط عليه تيسًا قطَّعه ، وألقاه من فوق الجبل ، لهوانه على الله .

يا لذل قَزْمٍ تَطاول على النبي ﷺ ، وشج وجهه ، فأخزاه الله ، وقطعه تيس .. وتردى من فوق الجبل إلى الهاوية ، ليخزى في الدنيا والآخرة .

○ معذبة زنيرة ○

كانت زنيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امرأة مشركة في قريش ، لما أسلمت قامت سيدتها تعذبها بالليل والنهار ، وذات يوم جمعت الجواري وأمرتهن أن يضربْنَها على رأسها ، حتى فقدت البصر ، فإذا عطشت قالت : اعطوني ماءً . قالت : الماء أمامك فابحثي عنه . قالت لها سيدتها : يا زنيرة ، إن كان ربك الذي تؤمنين به حقًّا كما تزعمين ، ادعيه فليرد عليك بصرك لكي تري الماء والطعام . فرفعت يديها إلى الله ، وقالت : اللهم ، إني أسألك أن ترد عليَّ بصري : فأبصرت، وإذا بسيدتها تصرخ، وتصيح من رأسها وارأساه. وتقول للجواري: احملن النعال والقباقيب، واضربوني على رأسي. فضربنها حتى فقدت البصر .

وهكذا ينتقم الله لأوليائه والجزاء من جنس العمل[1] .

وكان العمى جزاءً على الكفر .

○ الوليد بن المغيرة ○

وأخيرًا شيخ أهل الكفر وأشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ .

---

(١) شريط بعنوان : حلاوة الإيمان . للشيخ أحمد القطان .

قال تعالى : ﴿ **ولا تطع كل حلّاف مهين . همّاز مشاء بنميم . منّاع للخير معتد أثيم . عُتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم** ﴾[القلم : ١٠ - ١٦] .

قال سيد قطب :

وقد قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا ..** ﴾ الآيات [المدثر : ١١] .

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله ﷺ ، وإنذار أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصدّ عن سبيل الله .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة ، والتهديدات القاصمة في السورة الأخرى وفي سواها ، شاهدٌ على شدة دوره - سواء كان هو الوليد أو الأخنس ، والأول أرجح - في حرب الرسول والدعوة ، كما هي شاهد على سوء طويته وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

فهو ﴿ **زنيم** ﴾ ، وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الإسلام ، وما يعادي الإسلام ويصرّ على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم .

والزنيم من معانيه : اللصيق في القوم ، لا نسب له فيهم ، أو أن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره ، والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليد بن المغيرة ، وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا في القوم ، وهو المختال الفخور ..

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار ، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه ، ويسمع وعد الله القاطع : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ ...

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير .

الأول : الوسم كما يوسم العبد ..

والثاني : جعل أنفه خرطومًا كخرطوم الخنزير ...

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم[1] .

قال الفخر الرازي :

﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ إن في الآية احتمالًا آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول ، وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية .

فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية ، كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية ، فعبّر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ .

قال ابن عباس : سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش .

قال ابن كثير :

قال ابن جرير : سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه ، ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه ، وفي رواية عنه : سنسمه سيما على أنفه ، وكذا قال السدي ، وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون سنسمه سمة أهل النار ، يعني : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم ، وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٦٦٣ - ٣٦٦٤) .

في الدنيا والآخرة[١] .

من مات همّازًا لمّازًا ملقبًا للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين .

قال العوفي عن ابن عباس : يقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري ، وليس به .

وقال الرازي : في مفاتيح الغيب :

وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من البنين ، وكان يقول لهم وما قاربهم : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا ، فمنعهم الإسلام .

وعن ابن عباس : أبو جهل ، وعن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث ، وعن السدي ، الأخنس بن شريق[٢] .

قال البقاعي :

لما كان هذا المذكور قد أغرق في الشر ، فتوقع السامع جزاءه ، قال معلمًا أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة ﴿ **سنسمه** ﴾ أي : نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره ، تقول العرب : وسمه مَيْسم سوء ، ولما كان الوسم منكئًا ، وكان جعله في موجع لا يُستر أنكأ ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان ، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه الأنفة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٥ - ٤٠٦) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٥ / ٦٥٤ - ٦٥٥) .

﴿ **على الخرطوم** ﴾ أي : الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين ، وَسْمًا مستعليا عليه بوضوح جدًّا ؛ ليكون هتكه بين الناس وفضيحة لقومه ، وذلًا وعارًا ، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع ، والذنب القبيح من الكفر وما معه ، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا ، على أنه حقق في الدنيا هذا الخطم حسا بأنه ضُرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه[1] .

قال تعالى : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا . وجعلت له مالًا ممدودًا . وبنين شهودًا ومهدت له تمهيدًا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا . سأرهقه صعودًا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر** ﴾ [المدثر : ١١ - ٢٩] .

يقول الشيخ سيد قطب : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ . التصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقًا ، فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعَّد كان أكثر مشقة ، وأعظم إرهاقًا ، وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة ، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الورود ، يندبُّ في طريق وعرٍ شاقٍّ مبتوت ؛ ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصَّعَّد في السماء ، أو يصَّعَّد في وعرٍ صلد ، لا رِيّ فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !.

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية ، والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته ، كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولًا يقوله فيه ؛ جدّ مصطنع ، متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء ، وبعد هذا المخاض كله ؛ وهذا الحَزق كله ، لا يفتح عليه بشيء ، إنما يدبر عن النور ، ويستكبر عن الحق .

---

(١) نظم الدرر (٢٠ / ٣٠٥ - ٣٠٦) .

إنها لمحات تدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الرزية في صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال .

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات ، عقب عليها بالوعيد المفزع : ﴿ **سأصليه سقر** ﴾ .. وزاد هذا الوعيد تهويلًا بتجهيل سقر ، ﴿ **وما أدراك ما سقر** ﴾ إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ؛ ثم عقب على التجهيل بشيء من صفاتها أشد هولا : ﴿ **لا تبقي ولا تذر** ﴾ فهي تكنس كنسًا ، وتبلع بلعًا ، وتمحو محوًا ، فلا يقف لها شيء ، ولا يقف وراءها شيء ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء[1] !

هذا دين رفيع ، لا يُعْرض عنه إلا مطموس ، ولا يعيبه إلا منكوس .

قال القاسمي :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره ما رواه ابن إسحٰق ، أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأيًا واحدًا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضًا ، ويردّ قولكم بعضه بعضًا ، قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس ، فقل ، وأقم لنا رأيًا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر - قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا

---

(١) الظلال (٦ / ٣٧٥٦) .

السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ؛ إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإنّ فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا** ..﴾ الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله الآيات . رواه ابن جرير[(١)].

قال محمد الطاهر بن عاشور :

كان الوليد بن المغيرة ، يلقب في قريش بالوحيـد ، لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته ، وهي كثرة الولد ، وسعة المال ، ومجده ، ومجد أبيه من قبله ، وكان مرجع قريش في أمورهم ؛ لأنه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان ، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به . وجاء هذا الوصف بعد فعل : خلقت . ليُصرف هذا الوصف عما كان مرادًا به ؛ أي أوجدته وحيدًا عن المال والبنين والبسطة ، فيغير عن غرض المدح والثناء الذي كانوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حالُ كل مخلوق .

عن ابن عباس : كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل ، والغنم ، والعبيد ، والجواري ، والجنان ، وكانت غلة ماله ألف دينار في السنة .

﴿ **ومهدت له تمهيدا** ﴾ تيسير أموره ، ونفاذ كلمته في قومه ، بحيث لا يعسر عليه مطلب . ولا يستعصي عليه أمر .

---

(١) محاسن التأويل (١٥ / ٥٩٧٨) ، وابن جرير (٢٩ / ١٥٧) طبعة الحلبي الثانية .

وأكد ﴿ **مهدت** ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ؛ ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد .

﴿ **ثم يطمع أن أزيد** ﴾ ثم للتراخي الرتبي ، أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من تلك النِّعم .

﴿ **كلا** ﴾ ردعٌ وإبطالٌ لطمعه في الزيادة من النّعم ، وقطع لرجائه .

والمقصود إبلاغ هذا إليه ، مع تطمين النبي ﷺ بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق .

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها[١] . عوقب بنقيض قصده .

ثم قال الشيخ الطاهر بن عاشور :

الصَّعود : العقبة الشديدة التصعد الشاقة على الماشي ، وهي فعول مبالغة من صعد ، فإن العقبة صَعْدة ، فإذا كانت عقبة أشد تصعدًا من العقبات المعتادة قيل لها : صَعُود .

وقوله : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ تمثيل لضد الحالة المحملة في قوله : ﴿ **ومهدت له تمهيدًا** ﴾ أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى حالة سُوأى في الدنيا ، ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة ، وكل ذلك إرهاق له .

قيل : إن طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت ، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا[٢] .

قال ابن كثير :

﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ قال قتادة عن ابن عباس صعودًا صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه ، وقال السدي : صعودًا ، صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٤-٣٠٦). (٢) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٧) .

وقال مجاهد : ﴿ سأرهقه صعودًا ﴾ أي مشقة من العذاب ، وقال قتادة : عذابًا لا راحة فيه ، واختاره ابن جرير .

﴿ إنه فكر وقدر ﴾ : أي إنما أرهقناه صعودًا لبعده عن الإيمان ؛ لأنه فكر وقدر أيْ وتروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال .

وقال ابن كثير أيضًا :

خرج على قريش ، فقال : يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة ، فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا ، وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام . قال : أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل بيته فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟. فقال : ألست أكثرهم مالًا وولدًا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا بسحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر ﴾ قال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقال قتادة :

قال البقاعي في نظم الدرر :

أكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد في زمانه من أهل بيته وفخذه ، بحيث كان يسمى : الوحيد ، وريحانة قريش . فلم يرعَ هذه النعمة[1] العظيمة ، ﴿ ثم يطمع أن أزيد كلا ﴾ لم يزد بعد ذلك شيئًا ، بل لم يزل في

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٤٣ - ٤٤٤) .

نقصان حتى هلك ، ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا لا مبدل لكلماته** ﴾ [الأنعام : ١١٥] . ليرتدع عن هذا الطمع ، وليزدجر وليرتجع ، فإنه حمق محض ، وزخرف بحت ، وغرور صرف .

﴿ **إنه كان لآياتنا عنيدًا** ﴾ أي : بالغ العناد ، على وجه لا يعد عناده لغيرها ، بسبب مزيد قبحه عنادًا .

والعناد ، كما قال الملوي : من كبر في النفس ، أو يبس في الطبع ، أو شراسة في الخلق ، أو خبل في العقل . وقد جمع ذلك كله إبليس .

لما كان العناد غلظة في الطبع ، أو شكاسة في الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه ، فقال : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ أي : ألحقه بعنف وغلظة وقهر ، إلحاقًا يغشاه ويحيط به وعيدًا لا خلف فيه .

﴿ **صعودًا** ﴾ أي : شيئًا من الدواهي والأنكاد ، كأنه عقبة .

﴿ **إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إن هذا إلا قول البشر** ﴾ حاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها ، سكت ألفًا ونطق خلفًا ، فكان شبيهًا من بعض الوجوه بما قاله بعضهم :

لو قيلَ كم خمس وخمس لاغتدى ... يومًا وليلته يعـدُّ ويحسبُ
ويقول معضلة عجيبٌ أمرها ... ولئن عجبت لها لأمري أعجبُ
حتى إذا خدرت يداه وغُوِّرتْ ... عيناه مما قد يَخطُّ ويكتبُ
أوفى على شَرَفٍ وقال ألا انظروا ... ويكاد من فرح يُجنُّ ويُسلبُ
خمس وخمس ستة أو سبعة ... قولان قالهما الخليل وثعلبُ

قال تعالى : ﴿ **سأصليه سقر** ﴾ أي : الدركة النارية ، التي تفعل في الأدمغة من شدة حموها ما يجلّ عن الوصف ، فأدخله إياها ، وألوحه في الشدائد حرُّها ، وأذيب دماغه بها ، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها ، جزاءً على تفكيره هذا . الذي قدره ، وتخيله وصوّره بإرادته في طبقات دماغه ؛ ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه[1] .

---

(١) نظم الدرر (٢١ / ٥١ - ٥٩) بتصرف .

والجزاء من جنس العمل .

أما قوله تعالى : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ أي : قطَّب وجهه وكلح ، فتربَّد وجهه ، مع تقبض ما بين العينين بكراهة شديدة ، فإنه يقابل بجر هذا الوجه ، وبسواد هذا الوجه وزرقته من اللواحة للبشر ، جزاءً وفاقًا .

○ كسرى ملك الفرس ○

روى محمد بن إسحق عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله ابن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال : « مزق ملكه » .

وعند ابن جرير : عن أيد بن أبي حبيب قال : وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك فارس ، وكتب معه : بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد، رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافَّة ؛ لأنذر من كان حيًّا ، ويحق القول على الكافرين ، فإن تُسلم تَسلم ، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

قال : فلما قرأه شقه ، وقال : يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي . قال : ثم كتب كسرى إلى باذان – وهو نائبه على اليمن – أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك ، جلدين ، فليأتياني به . فبعث باذان قهرمانه ، وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس ، وبعث معه رجلًا من الفرس يقال له : فرخرة ، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لباذويه : ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره . فخرج حتى قدم الطائف فوجدا رجلًا من قريش ، في أرض الطائف ، فسألوه عنه ، فقال : هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف – يعني وقريش – بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، وكفيتم الرجل . فخرجا حتى قدما على رسول الله

ﷺ فكلمه باذويه ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك يكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكرِه النظر إليهما ، وقال : « ويلكما ، من أمركما بهذا ؟ » قالا : أمرنا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله ﷺ : « ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي » . ثم قال : « ارجعا حتى تأتياني غدًا » . قال : وأتى رسول الله الخبر من السماء ، بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله في شهر كذا وكذا ، في ليلة كذا وكذا من الليل ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

قال : فدعاهما فأخبرهما . فقالا : هل تدري ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك باذان ؟. قال : « نعم ، أخبراه ذلك عني ، وقولا له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي إلى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » . ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، فقال : والله ، ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى الرجل نبيًّا ، كما يقول ، وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقًّا فهو نبي مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأيًا ، فلم ينشب باذان أن قدم علي كتاب شيرويه : أما بعد ، فإني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس ، لما كان استحل من قتل أشرافهم ، ونحرهم في ثغورهم ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ لي الطاعة ممن قِبلك ، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجر حتى يأتيك أمري فيه ، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان ، قال : إن هذا الرجل لرسول . فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس ، من كان منهم باليمن .

قال : وقد قال باذويه لباذان : ما كلمت أحدًا أهيب عندي منه . فقال

له باذان : هل معه شرط ؟ قال : لا .

وكسرى إذ تقاسمه بنوه بأسيافٍ كما اقتسم اللحامُ
تمخضت المنونُ له بيومٍ أتى ولكل حاملة تمامُ

قال الشافعي : لما أُتي كسرى بكتاب رسول الله ﷺ مزقه ، فقال : رسول الله ﷺ : « يمزق ملكه » . وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب رسول الله ﷺ ووضعه في مسك . فقال رسول الله ﷺ : « ثبت ملكه » . ولما كانت العرب تأتي الشام والعراق للتجارة ، فأسلم من أسلم منهم ، شكَوْا خوفهم من مَلِكي العراق والشام إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » . فباد ملك الأكاسرة بالكلية ، وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية ، وإن ثبت لهم ملك في الجملة ، ببركة دعاء النبي ﷺ لهم حين عظموا كتابه ، والله أعلم[(١)] .

والجزاء من جنس العمل .

وعند مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فوالذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

قال رسول الله ﷺ : « عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى »[(٢)] .

وقال: «لتفتحن عصابة من المسلمين كنزًا لكسرى الذي في الأبيض»[(٣)].

وتم فتح بلاد فارس وتمزيقهم في القادسية .

(١) البداية والنهاية (٤/٢٦٨-٢٧١) .
(٢) رواه مسلم وأحمد عن جابر بن سمرة .
(٣) رواه مسلم عن جابر بن سمرة .

فالقادسية ما يزال حديثها عبرًا تضيء بأروع الأمثالِ
صفحات مجدٍ في الخلود سطورها عجب الرجال لها بغير جدال

○ رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول ○

قال البخاري في باب قوله تعالى : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأزل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ [المنافقون : ٨] .

عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال : كنا في غزاة فكسع[١] رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار . وقال المهاجري : ياللمهاجرين . فسَمَّعَها الله رسوله ﷺ قال : « ما هذا » فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال ﷺ : « دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ » .

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر ثم كثر المهاجرون بعد ، فقال عبد الله بن أُبي : أَوَ قَدْ فعلوا ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[٢].

وفي البخاري من حديث زيد بن أرقم قال : كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل ... الحديث .

كان ذلك في غزوة بني المصطلق من خزاعة ، وهي غزوة المريسيع وهو ماء من مياههم .

---

(١) المشهور فيه ضرب الدبر باليد أو الرجل ، وذلك عند أهل اليمن شديد .

(٢) رواه البخاري .

قال ابن إسحق :

فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه ، وسنان بن دبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء ، فاقتتلا فصرخ الجهني ، يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث . فقال :أَوَ قَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش[1] هذه إلا كما قال الأول : تُسمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذلّ ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مُر به عبّاد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل » . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه ،فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفًا عظيمًا ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدَبًا على ابن أبي ودفعًا عنه ، فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة، وسلم عليه وقال: يا رسول الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ، ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك صاحبك ؟ » أي صاحب يا رسول الله ؟

(١) اسم كان يلقّب به المنافقون أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين .

قال : « عبد الله بن أبي » . قال : وما قال ؟. قال : « زعم أنه إنْ رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ». قال : فأنت والله يا رسول الله ، تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز . قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لنُتَوِّجَه ، فإنه يرى أن قد سلبته ملكًا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أُبي ...

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟

قال ابن إسحٰق :

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلًا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله ، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده مني ، وإني أخشىأن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأُدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته مابقي معنا » . وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ، ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب . حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله ، لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . فقال عمر : قد والله ، علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري » .

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما ، أن ابنه عبد الله – رضي الله عنه – وقف لأبيه عبد الله بن أبي بن سلول عند مضيق المدينة ، فقال : قف ، فوالله

لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك ، فأذن له ، فأرسله حتى دخل المدينة[1] .

وفي التفسير عند ابن كثير :

ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستلَّ سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ ، قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله ، لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ ، وكان يسير ساقة[2] ، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله ، لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أمّا إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجُز الآن .

وقال أبو بكر بن عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده :

قال هارون المدني : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل . قال : وجاء النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي ، فو الذي بعثك بالحق ما تأملتُ وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإني أكره أن أرى قاتل أبي ..

فانظر إلى رأس النفاق .. الذي لم يهد الله قلبه للإيمان ، ولم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة ، وتقف دون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير إحنة في صدره ؛ أنْ لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج ؛ بسبب مَقْدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى .. ويقول ما قال ، قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة ، فيكون جزاؤه من جنس عمله وقوله، على يد ابنه؛ ليتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ، في

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ١٥٨ - ١٦٠) . (٢) في مؤخرة الجيش .

نفس الواقعة وفي ذات الأوان ولم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز .

ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفي عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ، وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ، ويقول : ها نحن أولاء ، هذا لواء الأعزاء ، وهذا هو الصفُّ العزيز .

عزة مستمدة من عزته ، لا تهون ولا تهن ، ولا تنحني ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن في أوجِّ اللحظات ، إلا أن يتضعضع فيه الإيمان ، فإذا استقر الإيمان ورسخ ، فالعرة معه مستقرة راسخة .

انظر إلى هذا الرجل الذي كان وجيها عند قومه ، جاء إليه رسول الله ﷺ وهو على حمارة مر بها على طريق سبخة ، وجعل يدعوه إلى الإيمان ، وهو يقول له : ابعد عني يا محمد ، فإن رائحة حمارك تؤذيني ، فيقول له ابن عم له ، والله لريح حمار رسول الله أطيب من ريحك .

أي هوان كان هذا ، وصدق الله العظيم إذ يقول عن المنافقين : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ [المنافقون : ٤] أشباح وقوالب ، ليس وراءهم ألبابٌ وحقائق كالجوز الفارغ ، مزين ظاهره ، ولكنه للعب الصبيان .

هذا الذي تولى كبره ، وخاض في عرض أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك ، فقال الله – عز وجل – : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ [النور : ٢٣– ٢٤] جزاءً وفاقًا كما استطالت .

ثم انظر إلى كرم الرسول ﷺ معه ؛ ليدل ذلك على أن الجزاء من جنس العمل ، ما يرويه ابن كثير في البداية والنهاية[1] . من أنه لما مات عبد الله بن

---

(١) البداية والنهاية (٣١/٥ –٣٢) .

أبيّ – قبحه الله – ألبسه رسول الله ﷺ قميصه . وفي صحيح البخاري : أنه إنما ألبسه قميصه ؛ مكافأة له لما كان كسا العباس قميصًا حين قدم المدينة ، فلم يجدوا قميصًا يصلح له إلا قميص عبد الله بن أبيّ .

○ القرطاء البكريون ○

بعث رسول الله ﷺ إلى القرطاء البكريين ، بناحية ضرية في نجد شرقي المدينة ، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فاستهزءوا به وبكتابه ، فأخذوا الصحيفة التي تحمل دعوتهم إلى التوحيد ، فغسلوها من الحبر ، ثم رقعوا بها است دلوٍ لَهُم وأبوا أن يجيبوا الرسول ﷺ إلى ما دعاهم إليه ، فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول ﷺ ، وهي أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنة ابن أخي سيد القوم حارثة بن عمرو ، واستهجنت ما صنعوا ، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة :

إذا ما أتتهم آيةٌ من محمدٍ محوْها بماء البئر فهي عصيرُ

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم :

يذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله ﷺ ما فعلوا ، فصاروا دائما أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط وأهل سفه ، وكان الذي جاءهم بالكتاب رجل من عرينة ، يقال له : عبد الله بن عوسجة .

قال الواقدي : رأيت بعضهم عييًا لا يُبين الكلام[1] .

جرد رسول الله ﷺ حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب ، في شهر ربيع الأول سنة تسع هجرية ، فهزمهم في مكان بنجد يقال له : زجّ لاوة .

---

(١) الواقدي (٢/ ٧٥٤ ، ٣ / ٩٨٢) غزوة تبوك لباشميل ١٦ – ١٧

○ مدعو النبوة والألوهية ○
مسيلمة الكذّاب

كذّاب اليمامة ، وكان يُدعى رحمان اليمامة ، ادعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ قصدته سجاح لمّا ادعّت النبوة بجنودها ؛ لأخذ اليمامة منه ، فهابه قومها ، وقالوا : إنه قد استفحل أمره وعظم ، فقالت لهم فيما تقوله : عليكم باليمامة ، دفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم بعدها ملامة . قال : فعمدوا لحرب مسيلمة ، فلما سمع بمسيرها إليـه خافها على بلاده ، فبعث إليها يستأمنها ، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت ، فقد ردّه الله عليك فحباك به ، وراسلها ، ليجتمع بها في طائفة من قومه ، فركب إليها في أربعين من قومه ، فلما خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض ، وقبلت ذلك ، قال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا يزال أمره في كل ما يسر مجتمع ، رآكم ربكم فحيّاكم ، ومن وحشته أخلاكم ، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم ... إلى آخر الهراء ، وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعف القلم عن ذكره ... فلما رجعت سجاح إلى قومها قالوا : ما أصدقك ؟ فقالت : لم يصدقني شيئًا ، فقالوا : إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق ، فبعثت إليه تسأله صداقًا ، فقال : أرسلي إليّ مؤذنك ، فبعثته إليه - وهو شَبَثُ بن ربعي - فقال : نادِ في قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضعت عنكم صلاتين ، مما أتاكم به محمد - يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة - ثم أسلمت بعد ذلك سجاح .

هذا الكذّاب الذي كذب على الله ورسوله ، فشانه الله وفضحه بكذبه ، فما يسمى إلا مسيلمة الكذاب ، وكفى به جزاءً في الدنيا ، فكيف بالقتل وقد قتله وحشي العبد ؟.. فكيف بيوم القيامة ، ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ [الزمر : ٦٠] ويقول

تعالى : ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الكاذبين** ﴾ [هود : ١٨].

وجاء في قرآن مسيلمة الكذاب مما يثير الضحك والعجب العجاب :

يا ضفدع بنت الضفدعين ، نقي لكم نقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطين .

وكان يقول :

« والمبذرات ذرعًا ، والحاصدات حصدًا ، والذاريات قحمًا ، والطاحنات طحنًا ، والخابزات خبزًا ، والثاردات ثردًا ، واللاقمات لقمًا ، إهالة وسمنًا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، رفيقكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والناعي فواسوه » .

والله ، إنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان ، وهم يلعبون .

قال الصديق لوفد بني حنيفة : ويحكم ، أين كان يذهب بقولكم ؟ إن هذا لم يخرج من أل .

وكان الكذّاب يقول : والفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له زلوم طويل .

وكان يقول : والليل الدامس ، والذئب الهامس .

وفد عمرو بن العاص في أيام جاهليته على مسيلمة ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين ؟. فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ قال : أنزل عليه : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفي خسر ..** ﴾ [العصر : ١- ٢] قال : ففكر مسيلمة ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : ولقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هي ؟ فقال مسيلمة : يا وبر يا وبر ، إنما أنت إيراد وصدر ، وسائرك حفر نقر .

ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟. فقال له عمرو : والله ، إنك لتعلم أني

أعلم أنك تكذب .

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ ، بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه ، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية ، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجًا .

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلًا فيبست وهلكت .

وأتي بولدان يبرّك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم ، فمنهم من قرع رأسه ، ومنهم من لثغ لسانه .

والجزاء من جنس العمل ، فضوح الدنيا قبل الآخرة وتكذيب الناس له .

ويقال : إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي .

وعن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة ، فقال : أين مسيلمة ؟ فقال : مه رسول الله . فقال : لا ، حتى أراه . فلما جاء قال : أنت مسيلمة ؟ قال نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رجس . قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة . فقال : أشهد أنك كذّاب وأن محمدًا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، واتبعه هذا الأعرابي الجلف - لعنه الله - حتى قُتل معه يوم عقربا لا رحمه الله[1] .

قدم هذا اللعين المدينة وافدًا إلى رسول الله ﷺ ، وقد وقف عليه رسول الله ﷺ ، فسمعه وهو يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته . فقال له : لو سألتني هذا العود - لعرجون في يده - ما أعطيتكه ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت . وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام كأن في يديه سوارين من ذهب ، فأهمه شأنهما ، فأوحى الله إليه في المنام : انفخهما ، فنفخهما فطارا ، فأولهما بكذابين يخرجان ، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرهما، أما الأسود

---

(١) البداية والنهاية (٦ / ٣٢٥ ، ٣٣٠ - ٣٣١) .

فذبح في داره ، وأما مسيلمة فعقره الله على يدي وحشي بن حرب ، رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل ، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه ، وذلك بعقر داره في حديقة الموت ، وقد قتل قبله وزيراه : محكم بن الطفيل ، والرجال بن عنفوة .

روى البخاري أن مسيلمة كتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم .

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك .

أما بعد .. فإني قد أشركت معك في الأمر ، فلك المدر ولي الوبر - ويروى فلكم نصف الأرض ، ولنا نصفها - ولكن قريشا قوم يعتدون . فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب.

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

لما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقل بالأمر من بعده ، واستخفَّ قومه فأطاعوه ، وكان يقول :

خذي الدف يا هذه والعبي وبُثّي محاسن هـذا النبـي

تولـى نبـي بنـي هـاشمٍ وقـام نبـي بنـي يعـربِ

فلم يمهله الله بعد وفاة رسوله ﷺ ، حتى سلّط الله عليه سيفًا من سيوفه ، وحتفا من حتوفه ، فعجّ بطنه ، وفلق رأسه ، وعجّل الله بروحه إلى النار، فبئس القرار.

قال الله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ [الأنعام : ٩٣] فمسيلمة والأسود وأمثالهما - لعنهما الله - أحق الناس دخولًا في هذه الآية الكريمة ، وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة(١) . اهـ .

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٤٥ - ٣٤٦ .

○ بهاء الله مؤسس النهائية ○

الكذاب الملعون ، الذي أعلن على أتباعه بأنه الموعود الذي أخبر عنه الباب ، وسماه بمن يظهره الله . وأسست الديانة الجديدة بدعوى أنه هو صاحب الشريعة المستقلة ، كما كان الشيرازي صاحبها ، وأنه ناسخ لشريعة البيان ، كما كان الشيرازي ناسخًا لشريعة الفرقان ، فقبله بعض البابيين وسموا بالبهائية ، وأخيرا ارتقى على عرش الربوبية والألوهية ، يدعي النبوة والرسالة ثم الألوهية .

فتعالوا إلى الكذاب حسين علي المازندراني بهاء الله :

انظر إلى دجّال الدجاجلة الذي يقول : لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله ، ولا في جمالي إلا جماله ، ولا في كينونتي إلا كينونته ، ولا في ذاتي إلا ذاته ، ولا في حركتي إلا حركته ، ولا في سكوني إلا سكونه ، ولا في قلمي إلا قلمه العزيز المحمود .

وقال : لم يكن في نفسي إلا الحق ، ولا يرى في ذاتي إلا الله[١] .

ويقول في أقدسه – الأنجس : والذي ينطق في السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء[٢] .

وقال الفاجر أيضًا عن نفسه : قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء[٣] .

ويقول العباس – الخناس – بن البهاء وخليفته : إن الأيام التي ظهر فيها موسى كانت أيام موسى ، والأيام التي ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح ، وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها ، وأما ذلك اليوم – يوم ظهور المازندراني الكذاب – كان يوم الله[٤] .

---

(١) سورة الهيكل للمازندراني .

(٢) مجموعة الأقدس ص ٣٢٥ .

(٣) إشراقات ص ١٨ .

(٤) مفاوضات عبد البهاء للعباس .

ويقول أيضًا : إن الجمال الأقدس الأبهى – حسين المازندراني – قد استوى ذلك اليوم – يوم دعواه الخبيثة – على عرش الربوبية الكبرى ، وتجلى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول : وإذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري، الأقدس المقام المقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البقاء ، ومصدر الأمر لمن في الأرضين والسماء[1] .

انظر إلى الدين الذي أتى به دجّال الدجاجلة :

الصلاة : من يطالع كتبهم المقدسة – النجسة – لا يجد فيها طريقة أدائها ، إلا ما كتبه البهاء في كتابه : الأقدس الفقرة ١٩ : قد فصّلنا الصلاة في ورقة أخرى ، طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب .

فأين ذهبت هذه الورقة ؟. قالوا : إن خصوم البهاء سرقوها منه ، وهم لذلك يبكون ويتألمون !!

ويحرم الصلاة جماعة بقوله : كتب عليكم الصلاة فرادى ، قد رفع حكم الجماعة إلا في صلاة الميت إنه لهو الآمر الحكيم[2].

الصوم : قد كتب لكم الصيام في شهر العلاء ، صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال[3] . وشهر العلاء هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر ، ويشمل على الأيام التسعة عشر . وأما فرضية الصوم ، فقد عفي عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول .

وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام ، وهذا حكم الله من قبل ومن بعد[4] .

---

(١) الأقدس الفقرة ١٤ . (٢) الأقدس الفقرة ٣٠ .

(٣) لوح كاظم للمازندراني ، وخزينة حدود وأحكام ص٣٦ .

(٤) خزينة حدود وأحكام ص ٣٧ .

الزكاة : قال البهاء : سوف نفصل لكم نصابها إذا شاء الله وأراد ، إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلام الحكيم[١] .

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفاصيلها .

بل قالوا: يعمل في الزكاة كما نزل في الفرقان[٢]- أي القرآن، والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونصابها في السنة لا في القرآن .

الحج : الحج للبيت الأعظم في بغداد ، وبيت النقطة في شيراز . وهو واجب على الرجال دون النساء .

الطهارة : رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء - قذرة كانت أم نجسة - وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم[٣] .

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها ، وقذرة نجسة .

المحرمات عند البهائيين :

لا يحرمون إلا زوجة الأب، وبقية نساء العالم حلال عندهم في جميع كتبهم، ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين .

وانظر ما يقول الفاجر : ومن اتخذ بكرًا لخدمته لا بأس عليه ، كذلك كان الأمر من قلم الوحي بالحق مرقوما[٤] . بل من قلم الشيطان أيها العربيد .

أما الزنا : فإنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرض به أحد الطرفين ، ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لاعقاب عليه ، بل يؤخذ منه الأجرة ؛ لأنها بالأجرة تنقلب السيئة حسنة ، يقول المازندراني : قد حكم الله لكل زانٍ وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل ، وهي تسعة مثاقيل من الذهب .

أما الزاني المحصن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما

(١) الأقدس الفقرة ٣٥١ .
(٢) لوح زين المقربين للمازندراني .
(٣) الأقدس الفقرة ١٦١ .
(٤) الأقدس الفقرة ١٤٢ .

بيت العدل . هذا قول نبي البهائية عباس عبد البهاء .

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية ، وقد كانت متزوجة ، والغريب أنها هي التي منحته هذا اللقب : بهاء الله .. فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته : بهاء الله . فهي أول المتفوهين بكلمة بهاء الله ، وكفاه جزاءً هذا .

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر .

الكذاب يظهر الله كذبه ويفضحه :

يقول البهاء في رسالته إلى الشاه : قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء ، وزبالة لمصباحه الذي به أشرقت الأرض والسماء .

يقول أسلمنت داعية البهائية : وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة ، عن النصر السريع للأمور الروحانية .

ولما سئل عباس عبد البهاء إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة تؤمن بالديانة البهائية أجاب : سيؤمن جميع أهل العالم .

وصرح أيضًا : هذا القرن قرن شمس الحقيقة ، وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض . بل وصرح أيضًا بأن سنة ١٩٥٧ تتأسس وحدة الإنسانية ، وكذب الكذاب وابنه .

انظر عميل الروس الذي ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته؟

الجزاء من جنس العمل :

يقول وقد كتب إلى شاه إيران ، يقول : ما وجدت في أيامي مقرا من على قدر أضع رجلي عليه ، كنت في كل الأحيان في غمرات البلايا التي ما اطلع عليها أحد ، كم من أيام اضطربت فيها أحبتي لضُرِّي ، وكم من ليالٍ ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلي ؛ خوفا لنفسي ، ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محرومًا[١] .

---

(١) الرسالة السلطانية للمازندراني ص٤ .

الكذاب الدجال يبكي ، وينوح ، ويشتكي ، ويعلي العويل والصراخ ، ويقول : كم من ليال فيها استراحت الوحوش ، والطيور في أوكارها ، وكان الغلام – الغلام والرب ؟– في السلاسل والأغلال ، ولم يجد لنفسه ناصرًا ولا معينًا(١) .

إله يستصرخ ، ورب يحتاج .. ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا** ﴾ [النساء : ٧٨] .

هذا الكذاب الذي افترى على الله ، وزعم أن كتابه الأكبر – الذي يسمونه : الأقدس – ناسخ لجميع الكتب السماوية : وآية واحدة منه خير من كتب الأولين والآخرين .

حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته ، وكذا بقية كتبه : الإيقان ، ولوح البقاء .

هذا المجنون الذي اعتنق البابية ، ثم ادعى النبوة والرسالة ، ثم الألوهية . ماذا كان جزاؤه في دار الدنيا قبل أن يذهب به إلى الهاوية ؟

لقد جُنَّ .

ينقل عن أحد أبناء حسين علي المازندراني البهاء أنه جُنّ في آخر حياته ، وقبل موته بمدة ، كما ذكره عمر عنائت نقلًا عن ابنه : إن البهاء جنّ في أواخر أيامه ، وكان ابنه – عباس عبد البهاء – يعمل كحاجب له(٢) .

جُنّ .. جزاءً وفاقًا .

○ غلام أحمد القادياني دجّال الهند(*) ○

عميل الإنجليز ، الكذاب الدجال ، انظر إلى عقيدته ، ثم انظر بعد ذلك

---

(١) الرسالة السلطانية ص ٣ .

(٢) انظر : البهائية نقد وتحليل لفضيلة الشيخ إحسان إلهي ظهير – رحمه الله – .

(*) من كتاب القاديانية دراسات وتحليل تأليف الأستاذ إحسان إلهي ظهير .

إلى نهايته. يقول المتنبي القادياني غلام أحمد : قال لي الله: إني أصلي وأصوم، وأصحو وأنام[١].

ويقول الكذاب : قال الله : إني مع الرسول أجيب ، أخطىء وأصيب ، إني مع الرسول محيط[٢] .

ويقول أيضًا : أنا رأيت في الكشف بأني قدمت أوراقًا كثيرة إلى الله ، ليوقع عليها ، ويصدق الطلبات التي اقترحتها ، فرأيت أن الله وقع على الأوراق بحبر أحمر ، وكان عندي وقت الكشف رجل من مريدي ، يقال له : عبد الله . ثم نفض الرب القلم ، وسقطت منه قطرات الحبر الأحمر على أثوابي وأثواب مريدي عبد الله[٣] .

ويقول : نستطيع أن نفرض لتصوير وجود له أيادي وأرجل كثيرة ، وأعضاؤه بكثرة لا تعد ولا تحصى ، وفي ضخامة لا نهاية لطولها وعرضها ، ومثل الأخطبوط له عروق كثيرة، التي هي امتدت إلى أنحاء العالم وأطرافها[٤].

وهؤلاء القاديانية المرتدون يعتقدون أن الله جامع وباشر نبيهم غلام أحمد ، وليس هذا فحسب ، بل هو النتيجة أيضًا لهذه المباشرة .

فأولًا : الذي باشره الله هو نبيهم غلام أحمد .

ثانيًا : ثم وهو الحامل .

وثالثًا : هو المولود .

قال القاضي يار محمد القادياني : إن المسيح الموعود – أي الغلام – بين

---

(١) البشرى (٢ / ٩٧) للغلام القادياني .

(٢) البشرى (٢ / ٧٩) .

(٣) ترياق القلوب ص ٣٣ .

(٤) توضيح المرام ص ٧٥ للقادياني .

مرة حالته فقال: إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية[١].

ويقول المتنبي القادياني بنفسه : قد نفخ في روح عيسى ، كما نفخ في مريم ، وحُبلتُ بصورة الاستعارة ، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر ، حُوّلت عن مريم ، وجعلت عيسى ، وبهذا الطريق صرت ابن مريم[٢] .

ويقول : إن الله سماني بمريم التي حبلت بعيسى ، وأنا المقصود من قوله في سورة التحريم : ﴿ **ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** ﴾[٣] .

وعلى هذا الأساس تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله ، بل هو عين الله .

يقول المتنبي الكذاب : قال لي الله : أنت من مائنا ، وهم من فشل - أي الجبن[٤] -.

ويقول: خاطبني الله بقوله : اسمع يا ولدي[٥] .

وقال : قال لي الرب : أنت مني ، وأنا منك ، ظهورك ظهوري[٦] .

تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيرًا .

ونريد أن نشير بأن الإله ، الذي ادعى القاديانية بأن الغلام ابن له ، كان إنكليزيًا ، كما صرخ غلام أحمد فيقول : أنا أُلهمت عدة إلهامات في الإنكليزية

---

(١) ضحية الإسلام ليار محمد ص ٣٤ .

(٢) سفينة نوح ص ٤٧ للغلام القادياني .

(٣) هامش حقيقة الوحي للغلام ص ٣٣٧

(٤) انجام آتم للغلام ص ٥٥ .

(٥) البشرى (١ / ٤٩) للغلام .

(٦) وحي المقدس ٦٥٠ للغلام .

وفي المرة الأخيرة ألهمت : «I Can What I Will do» يعني أنا أعمل ما شاء ، فظننت من اللهجة والتلفظ كأنه إنكليزي قائم على رأسي يتكلم[1] .

ويعتقد غلام أحمد أن النبوة ما ختمت برسول الله ﷺ ، فيقول هذا الدجال : أحلف بالله الذي في قبضته روحي ، هو الذي أرسلني وسماني نبيًّا ، وناداني بالمسيح الموعود ، وأنزل لصدق دعواي بينات ، بلغ عددها ثلاث مائة ألف بينة[2] .

ويقول : هو الإله الحق ، الذي أرسل رسوله في القاديان ، وأن الله يحفظ القاديان ، ويحرسها من الطاعون ، ولو يستمر إلى سبعين سنة ؛ لأنها مسكن رسوله ، وفي هذا آية للأمم[3] .

الطاعون يقع بالقاديان ، والجزاء من جنس القول والعمل :

ومن قدرة القهار الجبار أن وقع الطاعون في هذه القرية التي أنجسها غلام أحمد ؛ وعمّ القرى المجاورة ، بل ودخل إلى بيت غلام أحمد نفسه ، فيقول في رسالة أرسلها إلى صهره : ودخل الطاعونُ حتى في بيتنا .

والجزاء من جنس قول الكذاب ، ففضحه الله في حياته .

ويقول القادياني : أنا وحدي أعطيت كل ما أعطي لجميع الأنبياء[4] .

ويقول بنزول جبريل عليه السلام عليه ؛ يقول الغلام : إن جبريل جاء إليّ واختارني ، وأدار أصبعه ، وأشار إليّ بأن الله يحفظك من الأعداء[5] .

---

(١) براهين أحمدية للغلام القادياني ص ٤٨٠ .

(٢) تتمة الوحي للغلام ص ٦٨ .

(٣) دافع البلاء للغلام ص ١٠ ، ١١ .

(٤) در ثمين ص٢٨٧ لغلام أحمد .

(٥) مواهب الرحمن ص ٤٣ للغلام .

بل وحيه كوحي محمد ﷺ وإلهامته كالقرآن ؛ يقول الغلام : والله العظيم ، أؤمن بوحيي كما أومن بالقرآن ، وبقية كتب أنزلت من السماء ، وأنا أؤمن بأن الكلام الذي ينزل عليّ ينزل من الله ، كما أومن بأن القرآن نزل من عنده[١] .

ويقول : إيماني بالإلهامات التي تنزل علي كالإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن[٢] .

ومن اعتقادات القاديانية أنه نزل على غلام أحمد الكتاب كما نزل على بعض الرسل ، وأن الذي أُنزل عليه أكثر مما أُنزل على كثير من الأنبياء ، واسم هذا الكتاب المنزل عليه : الكتاب المبين .

يقول غلام أحمد : نزل عليّ كلام الله بهذه الكثرة ، لو يجمع لما يقل عن عشرين جزءًا .

ويعتقدون أن القاديان قرية الكذاب المخبول أفضل من مكة والمدينة ، وفيها قطعة من قطعات الجنة .

يقول الغلام القادياني : قد أنزل الله قوله في القرآن : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ [آل عمران : ٩٧] وصفًا لمسجدي في القاديان[٣] .

وقال غلام أحمد : إن الذي لا يجيء إلى القاديان أخاف على إيمانه[٤] .

ويقول محمود أحمد بن الغلام : قد انقطع ثمرة مكة والمدينة ، ولكن ثمرة القاديان ما زالت طازجة[٥] .

الحج : الحج عندهم هو حضور المؤتمر السنوي في القاديان .

---

(١) حقيقة الوحي ص ٢١١ للغلام القادياني .
(٢) تبليغ رسالت (٦ / ٦٤) .
(٣) إزالة الأوهام ص ٧٥ للقادياني .
(٤) أنوار الخلافة ص ١١٧ .
(٥) حقيقة الرؤيا ص ٤٦ .

يقول ابن الغلام : إن مؤتمرنا السنوي هو الحج ، وإن الله اختار المقام لهذا - الحج - القاديان[١] .

وقال الغلام الكذاب : إن البقاء في القاديان أفضل من الحج النفلي[٢] .

وفي قرآن القاديان الكتاب المبين آيات ، ومن بعض آياته :

إن الله ينزل في القاديان[٣] .

يحمدك الله من عرشه ويمشي إليك[٤] .

عقيدة الجهاد نجسة عند عميل الإنجليز :

قال المتنبي الدجال: إن هذه الفرقة ، الفرقة القاديانية ، لا تزال تجتهد ليلا ونهارًا ؛ لقمع العقيدة النجسة ، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين[٥] .

المتنبي القادياني وإهانته للأنبياء والصحابة :

يفضل نفسه على آدم فيقول : صار آدم ذليلًا مصغرا ، ثم خلقني الله لكي أهزم الشيطان[٦] .

ويفضل نفسه على نبي الله نوح :

فيقول : إن الله أنزل لصدق دعواي آيات وبينات بهذه الكثرة ، لو أنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه[٧] .

ويفضل نفسه على نبي الله يوسف :

فيقول : إن يوسف هذه الأمة يعني أنا العاجز الحقير أفضل من يوسف

---

(١) بركات الخلافة لمحمود أحمد ص ٥ ، ٧ .

(٢) مرآة كمالات الإسلام ص ٥٢ للغلام .

(٣) البشرى ص ٥٦ للغلام .

(٤) عاقبة آثم ص ٥٥ للغلام .

(٥) عريضة الغلام إلى الحكومة المندرجة في ريويوآف ريليجنز نمرة ٥ ، ١٩٢٢م .

(٦) ما الفرق في آدم والمسيح الموعود للغلام .

(٧) تتمة حقيقة الوحي ص ١٣٧ للغلام .

بني إسرائيل ؛ لأن الله شهد لبراءتي بنفسه ، وبآيات كثيرة ، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس[١] .

ويفضل نفسه على عيسى :

فيقول : إن الله أرسل من هذه الأمة المسيح ، الذي هو أعظم شأنا من المسيح الأول بمراتب ، والله الذي في قبضته روحي ، إن كان عيسى في زمن الذي أعيش فيه أنا ، ما كان يستطيع أن يعمل ما أعمله أنا[٢] .

أفضل من كل الأنبياء :

يقول : جاء أنبياء كثيرون ، ولكن لم يتقدم أحد عليّ في معرفة الله ، وكل ما أعطي لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدي بأكمله[٣] .

ويقذف الأنبياء :

يقول : أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر[٤] .

ويقول الكذاب : إن أسرة عيسى أسرة عجيبة ، كانت جداته الثلاث فاجرات ، ومن هذا الدم المطهر ؟ تكّون وجود عيسى .. ولعله كان ميلان عيسى إلى المومسات لهذه النسبة ، وإلا لا يسمح أحد من المتقين ، أن يمس رأسه شابة زانية ، وتعطره بمالها الحرام فليفهم الناس كيف كان أخلاق هذا المسيح[٥].

والحمد لله أن هذا الخبيث يرد على نفسه ، فيقول : الذي يسب أو يشتم الأخيار المقدسين فليس إلا خبيث ، ملعون ، لئيم[٦].

تطاوله على الرسول الكريم ﷺ :

يقول الدجال : إن النبي ﷺ له ثلاثة آلاف معجزة ، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة[٧] .

---

(١) براهين أحمدية للغلام .
(٢) حقيقة الوحي ١٤٨ للغلام .
(٣) در ثمين ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ للغلام .
(٤) ريويو (١٢٣/١) ١٩٠٢م .
(٥) ضميمةأنجام آتهم ص ٧ للغلام .
(٦) البلاغ المبين ص ١٩ .
(٧) تذكرة الشهادتين ص ٤١ للغلام .

يقول ابنه وخليفته : إن الارتقاء الذهني لإمامنا كان أزيد ، وأكثر من النبي الكريم[(١)] .

ويقول غلام أحمد :

له خسف القمر المنير وإن لي غسا القمران المشرقان أتنكر[(٢)]

ويقول : إن الإسلام بدأ كالهلال ، ثم قدر له أن يكون في هذا القرن كالبدر، وإلى هذا أشار الله- عز وجل-: ﴿**لقد نصركم الله ببدر**﴾[(٣)] [آل عمران : ١٢٣] .

وقال هذا الدجال : وأما تجليات كمالات رسول الله ما كانت راقية إلى منتهاها ، بل هذه التجليات بلغت إلى ذروتها في عهدي وفي شخصي[(٤)] .

ويقول: إن المراد في قول الله – عز وجل -: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ [الفتح : ٢٩] هو أنا ؛ لأن الله سماني في هذا الوحي محمدًا ورسولًا[(٥)] .

ويقول : أنا هو المصداق لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾[(٦)] [الصف : ٩] .

ويقول: أنا المراد في قوله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[(٧)] [الأنبياء : ١٠٧] .

ويقول : وأنا المقصود في قوله: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا**﴾[(٨)]. [الإسراء: ٧٩].

---

(١) ريويو القادياني مايو سنة ١٩٣٩م . (٢) إعجاز أحمدي ص ٧١ للغلام .

(٣) خطبة إلهامية ص ١٨٤ للغلام . (٤) خطبة إلهامية ص ١٧٧ للغلام .

(٥) قول الغلام المندرج في تبليغ رسالت (جـ١٠ / ١٤) لقاسم القادياني .

(٦) إعجاز أحمدي ص ٧ للغلام ضميمة نزول المسيح .

(٧) أربعين نمرة ٣ ص ٢٥ للغلام .

(٨) أربعين ص ١٠٢ للغلام .

ويقول محمود أحمد خليفة القاديانية : لو أن أحدًا يريد أن يتقدم على رسول الله مرتبة وشأنا يستطيع أن يتقدم .

فأي كفر وخبث ونجاسة أعظم من هذا ، وهكذا يجترىء الأوباش على مقام رسول الله ﷺ .

وكتب أحد القاديانيين : أنه سمع من أحد مبلغي القاديانية ، الذي هو من أهل البيت – يريد أولاد الغلام – أنه يقول : أين أبو بكر وعمر من غلام أحمد ؟ إنهما لا يستحقان أن يحملا نعليه .

ويقول الغلام الكذاب : أنا هو المهدي الذي سئل عنه ابن سيرين ، هل هو في مرتبة أبي بكر ؟ فقال : أين أبو بكر منه ؟ بل هو أفضل من بعض الأنبياء[١] .

ويقول : يوجد فيكم عليّ حيّ فتتركونه ، وتبغون عليًّا ميتًا[٢] .

ويقول : يقولون عني بأني أفضل نفسي على الحسن والحسين ، فأنا أقول : نعم ، أنا أفضل نفسي عليهما ، وسوف يظهر الله هذه الفضيلة[٣] .

وقال ابنه : إن أبي قال : مائة حسين في جيبي . فالناس يفهمون معناه ، إنه يساوي مائة حسين ، ولكني أقول أكثر من هذا ، وهو : إن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبي ، أفضل من تضحيات مائة حسين[٤] .

الغلام رجل أفيوني خمّار :

يقول ابنه : كان أبي يقول : إن الأفيون نصف الطب ، ولذا استعماله للتداوي يجوز ولا بأس به ، وإنه صنع دواء باسم ترياق إلهي بهدى الله وعونه وكان الجزء الأكبر في هذا الدواء الأفيون ، وكان يعطي هذا الدواء لخليفته الأول

---

(١) معيار الأخبار للغلام المندرج في تبليغ رسالت جـ ٩ / ٣٠ .

(٢) ملفوظات أحمدية جـ ١ / ١٣١ .

(٣) إعجاز أحمدي ص ٥٨ للغلام .

(٤) خطبة الجمعة في القاديان المنشورة في مجلة قاديانية « الفضل » الصادرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٦ .

نور الدين ، كما كان يستعمله هو أيضا حينا بعد حين لمختلف الأمراض .

وأرسل الغلام إلى أحد مريديه في لاهور أن يرسل إليه : وائن ، ويشتريه من دكان رجل يقال له : بلومر . وحينما سأل بلومر عن وائن ماذا هو ؟ فقال : إن وائن قسم قوي مسكر ، من أقسام الخمر الذي يستورد من انجلترا في القوارير المختومة[١] .

جزاء الكذّاب فضحه وإظهار كذبه :

هذا الذي كذب على الله ، وكذب على رسوله ﷺ أظهر الله كذبه وشهره بهذا .

يقول الكذاب: لا يوجد أي شيء أحسن وأفضل لاختبار صدقي وكذبي من تنبؤاتي[٢]. يداك أوكتا وفوك نفخ .

النبوءة الأولى :

تناظر غلام أحمد مع عبد الله آثم المسيحي في إحدى مدن الهند سنة ١٨٩٣ ، وبعد نقاش طويل ما وصلا إلى نتيجة ، ولم يفز واحد منهما على الآخر، فما أصبح الصباح يوم ٥ يونيو سنة ١٨٩٣ إلا وقد أعلن بأنه أخبر عن الله بأن عبد الله آثم سيموت في خمسة عشر شهرًا ، أي إلى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٤ فعاش عبد الله آثم المذكور طويلًا ، ونكس رأس الملعون ، وأذله الله في هذه الدنيا أمام الملأ .

النبوءة الثانية :

ذهب رجل من أقربائه يُسمى : أحمد بك إليه في أمر كان يتعلق به ، واستدعاه المساعدة ، فقال له : أساعدك بشرط أن تزوجني ابنتك : محمدي بيجوم . فأبى أحمد أن يقبل هذا الشرط ، فجن جنون غلام أحمد ، وبدأ يهدده ويتوعده وبلغ به الولع بهذه البنت أن قال : إن الابنة الكبيرة لأحمد بك تزوج

---

(١) مكتوب الإمام باسم الغلام ص ٥ للطبيب القادياني محمد حسين .

(٢) مرآة الكمالات ص ٢٣٢ للغلام .

لي ، مع أن أهلها يخالفون ويمانعون ، ولكن الله يزوجها لي ، ويرفع كل الحواجز ، ولا يستطيع أحد أن يحول دون تحقيق هذا[(١)] .

ويقول : قد قال الله عز وجل : زوجناكها نحن بأنفسنا ، ولا يستطيع أحدٌ أن يبدل كلماتي[(٢)] .

ويقول : إن لم يتحقق هذا النبأ فأكون أخبث الخبثاء ، هذا ليس افتراءً من إنسان ولا لعبة خبيث ، مفتري ، بل هذا وعد الله الحق ، الإله الذي لا تبديل لكلماته ، والرب الذي لا مانع لإرادته[(٣)] .

وظل يتذلل أمام أحمد بك ، ويسترحمه : أنا أرجو منكم بكل أدب وعجز أن تقبلوا زواج ابنتكم مني .

وحرم غلام أحمد ابنه سلطان من الإرث وطلق أمه ، وحرم ابنه فضلًا من إرثه أيضًا ؛ لأنهم لم يساعدوه في الزواج من هذه المرأة .

وفضحه الله على رؤوس الأشهاد ، وتزوجت من غيره .

النبوءة الثالثة :

وهي بموت زوج هذه المرأة وزواجها منه ، ولكن الكاذب يموت ، وتظل هذه المرأة حيَّة مع زوجها حتى ماتت في نوفمبر سنة ١٩٦٦ ، ومات هذا الكذاب سنة ١٩٠٨ .

النبوءة الرابعة :

في سنة ١٨٦٦م وبتاريخ ٢٠ فبراير حينما كانت امرأة غلام أحمد حبلى أعلن أنه ألهم من الله ما نصه : إن الله الرحيم الكريم ، الذي هو قادر على كل شيء أخبرني بأنه يظهر آيته ، آية الرحمة ، آية بينة ، ولد جميل وجيه زكي مظهر الأول

---

(١) إزالة الأوهام ص ٣٩٦ للغلام القادياني .

(٢) الحكم السماوي ص ٤٠ لغلام أحمد .

(٣) ضميمة انجام آتم ص ٥٤ لغلام أحمد .

والآخر ، مظهر الحق والعلاء كأن الله نزل من السماء ، وهذا الولد يكبر عجلًا ويفك الأسارى ويتبرك به الأقوام .

فولدت امرأة الغلام بعد هذه الإعلانات الطنانة ابنة وليس ابنا ، وسميت عصمت ، ثم ماتت بعد خمس سنوات فقط أي سَنة ١٨٩١ .

النبوءة الخامسة :

أعلن بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٦ : إن الله بشرني بأنه يكون لي ذرية كثيرة ، من النسوة ذوات البركات اللاتي أتزوج بعضهن بعد هذا الإلهام . وكذّبه الله فما تزوج بعد هذا لا النسوة بل ولا امرأة واحدة . والأولاد ؟!!

النبوءة السادسة :

ولد له ولد بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٩٩ وسماه : مبارك أحمد . وبعد ولادته بأيام أعلن الدجال : إن هذا الولد نور من نور الله ، ومصلح موعود ، وصاحب العظمة ، ومسيحي النفس ، ومشفي الأمراض ، وكلمة الله ، وسعيد الحظ ، وهذا يشتهر في أنحاء العالم وأطرافها ، يفك الأسارى ويتبرك به الأقوام[1] .

فمرض هذا الولد سنة ١٩٠٧ وفي تاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٧ حينما خف مرضه أعلن الدجال : ألهمني الله بأنه قد قبل الدعاء ، وذهب المرض . وما إن أعلن المتنبي القادياني هذا الافتراء على الله حتى عاد المرض من جديد ، وفي ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مات هذا المصلح الموعود الذي يفك الأسارى ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

النبوءة السابعة :

عن الطاعون وأنه لا يقع في القاديان ، فوقع ، وقال : إن بيتي كسفينة نوح ، من دخله حفظ عن كل الآفات والمصائب[2] . فدخل الطاعون بيته ،

---

(١) ترياق القلوب ص ٤٣ للقادياني .   (٢) سفينة نوح ص ٢٧ للغلام .

حتى أصابه هو .

النبوءة الثامنة :

تنبؤه بمولود لأحد مريديه ، فولدت زوجة هذا المريد بنتًا ، وأخبره أنه لن تموت زوجة هذا المريد إلا أن تضع الابن ، فماتت .

النبوءة التاسعة :

تناقش مرة مع المتنبي رجل من المسلمين - دكتور عبد الحكيم - وتحداه بأنه كذاب ، وأعلن : أن عبد الحكيم يموت في حياتي ؛ لأنه يهينني ويذلني .

ويقول : لكن الله بشرني بأني أعمر ثمانين سنة أو أكثر ، فلم يمت عبد الحكيم في حياته بل بقي حيًّا بعده ، وعمر ، ومات وهو في الثامن أو التاسع بعد الستين من عمره .

وكم كذب الدجال ، وما تحققت نبوءة له واحدة ، عقابا من الملك القهار لهذا المفتري الكذاب ، وألبسه الله رداء قوله في الدنيا .

والجزاء من جنس القول والعمل .

عاقبته وموته :

وموت الغلام كان فضيحة له ، وجزاءً وفاقًا ، فقد كان دجال القاديان يجلب اللعنات على نفسه ؛ لافتراءاته على الله ، والرسول والقرآن ، والأنبياء ، ونازله العلماء وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة : ثناء الله الأمر تسري ، مناظر الإسلام ، ومحامي المسلمين في القارة الهندية ، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات ، ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا لرجل إلهي[1] ، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبي القادياني غضبًا ، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ ١٥ أبريل بالضبط وكتب فيها ما يلي :

---

(١) هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا في مجلته : المنار الشهيرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم ، يسئلونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق .

إلى خدمة الأستاذ ثناء الله .

السلام على من اتبع الهدى ، من زمان وأنا أُكذَب وأُفسّق في مجلتكم : أهل حديث . ودائمًا تسمونني في مجلتكم هذه ملعونًا كذابًا ، ودجالًا مفسدًا ، وتشهرني في العالم بأني مفتري كذاب دجال ، وأفتري في دعواي المسيحية ، فأنا تأذيت منك كثيرًا وصبرت ، ولكني لمّا رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق ، وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءاتك عليّ ، فادعوا إنْ أنا كذّاب ومفتري كما تذكرني في مجلتك فأهلك في حياتك ، لأني أعلم أن عمر الكذّاب والمفسد لا يكون طويلا ، بل هو يموت خائبًا في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان ، وتكون في موته منفعة لعباد الله حيث لا يضلهم ، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا بل أكون متشرفًا بمخاطبة الله والمكالمة معه ، وأكون مسيحًا موعودًا ، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين ، حسب سنة الله فأعلن : إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب الله ، الذي لا يكون إلا من عند الله محضًا ، مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا ، فلن أكون مرسلًا من الله تعالى ، وهذا لا أقول نبوءة ، بل طلبت القضاء الفيصل من الله تبارك وتعالى ، وأدعو الله يا مولاي البصير القدير العليم الخبير ، يا عالم أسرار القلوب ، إنْ أنا كاذب ومفسد في نظرك ، وأفتري عليك ليلًا ونهارًا يا الله ، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء الله ، وسرّه وجماعته بموتي . آمين .

ويا الله إنْ أنا صادق ، وثناء الله عليّ باطل وكذّاب في التهم التي يلصقها بي ، فأهلكه يا رب العالمين في حياتي بالأمراض المهلكة ، مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض . آمين . يارب أنا أوذيت وصبرت ، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحد ، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم ، ويحسبني أرذَل خلق الله ، وقد شهرني في البلدان النائية بأني

في الحقيقة مفسد، ونهاب، وطماع، وكذاب، ومفتري، وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدًى كنت صبرت عليه ، ولكنّي أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفني دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يا ربي، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا الله ، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك ، فاقضْ بيني وبين ثناء الله بالحق ، وأهلكَ الكذاب والمفسد في حياة الصالح ، أو ابتليه في آفة تكون مثل الموت فافعل هكذا يا ربي الحبيب . آمين ثم آمين : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ .

وأخيرًا ، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة في مجلته ، ثم يعلق عليها ما يشاء ، فالقضاء الآن بيد الله .

الراقم عبد الله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود ، عافاه الله وأيده[1] .

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية : إن كل ما قيل عن ثناء الله ليس من عند أنفسنا ؛ بل من قبل الله ، كما أُلهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿ **أجيب دعوة الداع** ﴾ ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قبلت[2] .

الجزاء من جنس القول والعمل :

وفعلًا قبلت دعوته هذه ، وقضي بينه وبين ثناء الله بالحق ، فبعد ثلاثة عشر شهرا وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء الله وقدره ، بصورة بشعة ، كان يتمنّاها للشيخ الجليل ثناء الله ، نعم بنفس الصورة وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو ؟ بالكوليرا ، وإليك بيانه :

يكتب ابن الغلام القادياني وزعيم القاديانية بشير أحمد في سيرته :

أخبرتني أمي أن حضرته – أي الغلام – احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام

---

(١) إعلان الغلام القادياني المنشور بتاريخ ١٥ أبرايل سنة ١٩٠٧ ، المندرج في تبليغ رسالت (١٠ / ١٢٠) ، مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني .

(٢) جريدة بدر القاديانية الصادرة في ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٧ .

مباشرة ، ثم نام قليلًا ، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء ، فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يشعرني ، ثم أيقظني ، فرأيت أنه ضعف جدًّا ، وما استطاع الذهاب إلى سريره ، فلذا جلس على سريري أنا ، فبدأت أمسحه وأمسجه ، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء ، فلذا قضاها عند السرير ، واضطجع قليلًا بعد القضاء ، ولكن الضعف بلغ إلى منتهاه ، فجاءته الحاجة مرة أخرى ، فقضاها ، ثم جاءه القيء ، وبعد ما فرغ من القيء خر على ظهره ، واصطدم رأسه بخشب السرير ، وتغيرت حالته[1] .

وكتب رحيمه - أبو زوجه - : الليلة التي مرضها حضرته - الغلام - كنت نائمًا في غرفتي ، ولما اشتد مرضه أيقظوني ، فذهبت إلى حضرته ، ورأيت ما يعانيه من الألم ، فخاطبني قائلًا : أصبت بالكوليرا ، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة ، حتى مات اليوم الثاني بعد العاشرة من الصباح[2] .

هذا ، وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك : إن غلام أحمد المتنبي القادياني ، لما ابتلي بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت، ومات وكان جالسًا في بيت الخلاء لقضاء الحاجة .

كما نشر بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية : إن المخالفين يقولون : إن النجاسة كانت تخرج من فم حضرة المسيح الموعود وقت الموت[3] .

يا لله ... النجاسة تخرج من الفم الذي طالما أخرج النجاسات ، وافترى على الله وأنبيائه وأوليائه .

والجزاء من جنس القول والعمل .

---

(١) سيرة المهدي ص ١٠٩ لبشير أحمد بن الغلام .

(٢) حياة ناصر لرحيم الغلام القادياني ص ١٤ .

(٣) بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية : بيغام صلح في ٣ مارس سنة ١٩٣٩ .

مات غلام أحمد في العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م[1] . فمات وكان ثناء الله حيا ، وبقي حيّا بعد موته قريبا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ، ويقمع جذورهم .

وهكذا كذّب الله الكذّاب ، حتى آخر لحظةَ من حياته ، وعذّبه في الدنيا ، وعذاب الآخرة أشد وأنكى .

ومات غلام أحمد في لاهور ثم نُقل نعشه إلى القاديان ، وهكذا إلى بعد الموت أثبت أنه كان كذابًا في دعواه النبوة فكل نبي يدفن حيث قبض ، فذهب الكذاب إلى مزبلة التاريخ ، وصدق الله ورسوله .

* * *

(١) جريدة الحكم القاديانية ٢٨ مايو سنة ١٩٠٨ ، وسيرة المهدي .